بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العباسية المقدسة

بحوث مختارة من مجلة الخزانة

هل أحرق المغول مكتبات بغداد

بقلم

يوسف الهادي

إصدار

مركز إحياء التراث

التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

الهادي، يوسف، مؤلف.
هـل أحـرق المغـول مكتبـات بغـداد؟ / بقلـم يوسـف الهـادي. - الطبعـة الأولى. - كربـلاء، العـراق: مكتبـة ودار المخطوطات العتبة العباسيّة المقدّسة، مركز إحياء التراث، 1444 هـ . = 2023.
74 صفحة ؛ 24 سم.
يتضمّن إرجاعات ببليوجرافيّة : صفحة 63-72.
1. حرق الكتب-- العراق-- بغداد-- تاريخ. 2. المكتبات - تدمير ونهب - العراق - بغداد -- تاريخ.
أ. العنوان. بحوث مختارة من مجلة الخزانة. ب. العنوان.
1. المخطوطات العربيّة--دوريات. ألف. العنوان.

LCC: Z659 .H33 2023

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسيّة المقدّسة

0551/ 956

هـ 249 الهادي، يوسف

هـل أحـرق المغـول مكتبـات بغـداد؟ / يوسـف الهـادي. - ط1. - كربـلاء: مكتبـة ودار مخطوطـات العتبـة العباسيّة المقدّسة، 2024

74 ص ؛ 24 سم.

1. التاريخ الاسلاميّ - العصر العباسي الخامس - المغول.

م. و. 2. المكتبات - بغداد. أ. العنوان

2023/

المكتبة الوطنية / الفهرسة الثناء النشر.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٧٠) لسنة ٢٠٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبيّه الأكرم محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد ...

يمثّل الحقل المعرفيّ الخاص بالتراث المخطوط فضاءً معرفيًا واسعًا ومتنوّعًا؛ كونه يتفرّع إلى جملة من المجالات الرئيسيّة: كتحقيق النصوص ونشرها، ورقمنة المخطوطات وفهرستها، وترميم المخطوطات وصيانتها، وتتصل بكلّ مجال من هذه المجالات محاور فرعيّة متعددة، تنفتح عبرها نوافذ بحثيّة كثيرة على المستويين (النظريّ والتطبيقيّ).

ولا نغالي لو قلنا إنّ هذا الحقل من أخصب الحقول المعرفيّة، ولا يزال فيه من المواضيع الأصيلة التي تنتظر أقلام الباحثين والمحقّقين أولي العزم والهمّة؛ ليغوصوا في لجّه ويستخرجوا لآلئه بحوثًا ودراسات تراثيّة تُسهم في إغناء المكتبة الإسلاميّة، وتميط جزءًا من الستار عن إبداع علمائنا في مجال الفكر والثقافة طوال القرون المنصرمة.

فتبنّي إصدار يُسهم في خدمة التراث، ويغدو مقصدًا الباحثين المتخصّصين لنشر بحوثهم ودراساتهم، وتحفيز المؤسّسات المعنيّة للمشاركة في تنويع هكذا أوعية معرفيّة كهذه، كلّها كانت أمانيّ طمح لُها مركز إحياء التراث في العتبة العباسيّة منذ سنوات التأسيس الأولى، وأضحت تلك الأمانيّ تتحوّل بمرور الوقت إلى رؤية، وأخذت الأخيرة بالتطوّر والنضوج وَفق المعطيات المتاحة، وجميع آراء أهل الخبرة والدراية في هذا المجال الذي استأنسنا بها، كانت محفّزة وداعمة.

ثمّ جاء التفويض للنهوض بهذا المشروع التراثيّ، والإلزام بضرورة المضي به، في المؤتمر السنويّ الدوليّ الثانيّ لحفظ التراث المخطوط وإحيائه الذي أقامته العتبة العباسيّة المقدّسة للمدة ٤-٢٠١٥/١٠/٥م، إذ اتّفق المؤتمرون في البيان الختاميّ للمؤتمر على جملة أمور كان من بينها أهميّة إصدار مجلة متخصّصة بالتراث المخطوط.

وإيفاءً بهذا الالتزام؛ كون مركز إحياء التراث كان أحد المؤسسات الرئيسية المساهمة في إقامة المؤتمر، ولتحقيق الطموح السابق، باشرت إدارة المركز بالخطوات العمليّة الحثيثة لإصدار مجلّة متخصّصة، فتوالت الاتصالات، وتكاثفت اللقاءات بالنخب العلميّة

المتخصّصة بغيّة اختيار اسم المجلة، ووضع هيكليتها، وتحديد أبوابها، وتسميّة هيأتيها الاستشاريّة والتحريريّة، وقد استغرق ذلك شهورًا، فكانت الثمار بحمده تعالى (الخِزانة: مجلّة علميّة نصف سنويّة تُعنى بالتراث المخطوط والوثائق)، وتبنّى إصدارها المركز.

وما إن حلّ شهر حزيران من عام ٢٠١٧م حتى شهدت الساحة التراثيّة طباعة العدد الأول منها، بستة أبواب: (دراسات تراثيّة، نصوص محقّقة، نقد التحقيق، فهارس المخطوطات وكشافات المطبوعات، شخصية تراثيّة - وهو باب متغيّر- أخبار التراث)، ومنذ صدور هذا العدد لمسنا صدىً طيبًا، ودعمًا مبهجًا، أشاد بالمجلة علميًا وفنيًا، مّما أضاف على عاتقنا مسؤوليّة كبيرة؛ لرغبتنا في المحافظة على هذا الإنجاز والاستمرار به.

وكان التحدّي المنتظر هو العدد الثانيّ الذي كان عند حسن الظن، ووَفق ما أريد له، وبفضل الله تعالى، وجهود العاملين في المجلة، وتفاعل الباحثين، توالت الخِزانة بالصدور، حتى بلغت اليوم العدد الثاني عشر، فنالت اهتمام القرّاء والباحثين، إذ تنوّعت جنسيّة باحثيها التي غطّت أغلب بلدان عالمنا العربيّ، فضلًا عن عدد من الدول الإسلاميّة، والأجنبيّة، كسوريا، ولبنان، ومصر، والسودان، والجزائر، والمغرب، والسعودية، والكويت، والبحرين، وإيران، وتركيا، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا، والهند، وسلطنة بروناي، وغيرها.

ونظرًا لكون (الخِزانة) أضحت تمثّل جسراً تراثياً رصينًا يربط الماضي بالحاضر، ومنبرًا صادقًا للتعريف بتراث الشعوب وثقافاتهم في المغرب العربيّ ومشرقه، وفي غرب العالم وشرقه؛ حازت بحمد الله تعالى على إشادة العديد من المؤسّسات والشخصيّات العلميّة والتراثيّة من دول عديدة عربية وأجنبية.

وبعد أن تعدّت المجلة إصدارها العاشر، ونشرها للعشرات من البحوث التراثيّة المتنوّعة، ودعمًا الباحثين الأفاضل، وتكريم جهودهم العلميّة المتميزة التي أسهمت في إغناء المعرفة الإنسانيّة بموضوعات تراثيّة قيّمة، بادرت هيأة تحرير المجلة إلى انتخاب عدد من البحوث المتميزة التي ضمّتها أعدادها المنشورة؛ للتكفّل بإعادة طباعتها بشكل مستقل ضمن سلسلة وسمناها بـ (بحوث مختارة من مجلة الخِزانة)، ومن بين تلك البحوث اختير هذا البحث الذي بين أيديكم، سائلين المولى تعالى للباحث الكريم التوفيق لتقديم المزيد خدمةً للتراث وأهله، إنّه نعم المولى وخير مجيب.

إدارة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

كثيرًا ما قرأنا في كتبنا المدرسيّة وفي المؤلَّفات التي خُصِّصت لوقائع الغزو المغوليّ للعراق سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، أنّ المغول بعد ما ارتكبوه من فظائع بحقّ سكّان بغداد، جمعوا الكتب التي كانت في مكتباتها، وألقوا بها في نهر دجلة؛ فاختلط حبرها الأسود بسيل دماء الضحايا القاني المنحدر في هذا النهر، حيث يقول ابن خلدون مثلًا عند ذكره كتاب الجفر المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام: «ولم نَقِفْ على شيء من خبر هذا الكتاب، ولا رأينا من وقفَ عليه، ولعلَّه غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد» وقال عن إغارة المغول على مكتبات المدينة: «أُلقِيت كتبُ العِلم التي كانت بخزائنهم جميعها في دجلة، وكانت شيئًا لا يُعبَّر عنه مقابلةً -في زعمهم- بما فعله المسلمون لأوَّل الفتح في كتب الفرس وعلومهم»[١].

إنَّ ابن خلدون يجعل المغولَ هنا مدافعين عن علوم الفُرس، وهو كلام يدلّ على الجهل، فالمغول ليسوا فُرسًا، ولا ندري كيف يميِّز المغوليّ الأُمِّيّ إنْ كان هذا الكتاب الذي يريد إلقاءه في دجلة بالعربيّة أم بالفارسيّة؟ و المغول عندما أغاروا على المدن الإسلاميّة لم يكونوا يبالون إذا أصاب الدمار كُتبها بأيِّ لغة كانت.

سنجد هذا النصّ الخلدونيّ بزيادةٍ لدى كاتب معاصر بالصيغة الآتية: «كانت توجد في أواسط القرن الثالث عشر الميلاديّ ٣٦ مكتبة في العاصمة العباسيّة...، إنّ قواته (قوات هولاكو) حَرَقت كلّ مكتبات العاصمة العباسيّة، بل ورَمَت خلال أسبوع كامل في نهر الفرات[٢] عددًا من الكتب يعجز عنها الوصف. وقد شكَّل ذلك جسرًا تمرُّ عليه قوات

(١) العبر: ابن خلدون: ٣٣٨/١، ٥٣٧/٣.

(٢) لا نعلم السبب في هذا السهو الذي سيُكرر بعد قليل، فالكاتب باحث متمكِّن من مادة بحثه. والصواب هو نهر دجلة.

المشاة من الجنود والفرسان، وأصبحت مياه النهر قاتمة بسبب حبر المخطوطات؛ هذا ما قاله ابن خلدون بعد ١٢٠ سنة من ذلك التأريخ. إنَّ حكايات ألف ليلة وليلة تحدّثت عن الموضوع وبخاصّة حكاية علاء الدين والفانوس السحريّ، فقد ورد فيها ما معناه: أثناء الليل كانوا يغلقون أبواب بغداد؛ خوفًا من أن يدخل إليها الزنادقة ويسيطروا عليها، وخوفًا من أن يرموا كتب العلم في نهر الفرات»[١].

ونقرأ: «وبذلوا السيف في بغداد أربعين يومًا حتى صار الدم في أزقَّتها كأكباد الإبل ثمّ نُوديَ بالأمان فرُفع السيف ولم يبقَ ببغداد أحد ويُقال: إنّهم بنوا إسطبلات الخيول وطُوَالات المعالف بكتب العلماء عوضًا عن اللَّبِن»[٢].

ونقرأ: «ودخلت جيوش هُولاگُو بغداد وعملت فيها النهب والقتل ...، وتقوّضت الجوامع المقدّسة والضرائح الفخمة؛ إمّا بالنار أو بالمعاول من أجل قبابها الذهبيّة والتهمت النيران نتاج قرائح العلماء والأدباء، وأُلقيت الكتب التي فيها تلتهمها ألسن النار...»[٣].

وفي ما نعلم فإنّه لم تكن في بغداد قباب ذهبيّة في ذلك العصر.

ونقرأ: «خُرّبت بغداد الخرابَ العظيم وأُحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر

(١) كتب تحترق: بولاسترون: ١٣٣، ١٣٥. بعد أن نُشرت رحلة المواطن الحلبيّ حنا دياب، ثبت أنّ قصة علاء الدين ليست من ألف ليلة وليلة، بل هي تراث شعبيّ حلبيّ، رواها حنا دياب سنة ١٧٠٩م لأنطوان غالان مترجم الليالي إلى الفرنسيّة فزادها هذا في الكتاب.

(٢) مختصر أخبار الخلفاء: مجهول: ١٢٧. نُسِب الكتاب إلى ابن الساعي: وهو ليس له.
طوالات جمع طويلة: فارسيّة تعني: الإصطبل. لورود الفعل (يُقال) في هذا النصّ، يعتقد الدكتور سلام الجابريّ (نصير الدين الطوسيّ: ٣١٤)، بحقٍّ أنّ هذا الكتاب ليس لابن الساعي؛ لأنّه كان في بغداد عند دخول المغول، فلماذا يستعمل الفعل (يُقال) الذي يدلّ على أنّ قائله لم يشهد حادثة غزو بغداد؟ وكنّا قد أثبتنا أنّ الكتاب ليس لابن الساعي جزمًا في بحثنا الموسوم (هل من صلة بين كتاب مختصر أخبار الخلفاء وابن الساعي؟)، الذي نـشرناه في (مجلّة العرب) التي تصدر في المملكة العربيّة السعوديّة، العددان ١، ٢، السنة ٤٦، يونيو وحزيران وتموز ٢٠١٠م.

(٣) تاريخ الخلافة الأموية والعباسيّة: المهاينيّ: ١٨١-١٨٢.

العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا؛ قيل إنهم بنوا بها جسرًا من الطين والماء عوضًا عن الآجر، وقيل غير ذلك»[١]. ونجد مسألة إقامة المغول جسرًا بواسطة تكديس الكتب على بعضها بصورة أكثر تفصيلًا لدى العصامي المكي (١٠٤٩-١١١١هـ)، الذي وُلد وعاش ومات في مكة المكرمة، وكانت ولادته بعد ما يقرب من ٤٠٠ سنة من الغزو المغوليّ للعراق، حيث قال: «فقَتلوا (أي المغول) في ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاث مئة ألف وسبعين ألفًا، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ هُولاكُو جميع النقود وأَمَر بحرق الباقي، ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة، وكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليها ركبانًا ومشاة، وتغيَّر لون الماء بحبرها إلى السواد»[٢].

ويقول الدكتور السرجانيّ: «هذه هي مكتبة بغداد. ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟ لقد حملَ التتار الكتب الثمينة، ملايين الكتب الثمينة، وفي بساطة شديدة - لا تخلو من حماقة وغباء - ألقوا بها جميعًا في نهر دجلة...، ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة حتى تحوَّل لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وحتى قيل إنّ الفارس التتريّ كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفَّة إلى ضفَّة أُخرى»[٣].

السرجانيّ إذن يتصوّر أنّه كانت في بغداد مكتبة واحدة فقط تضمّ ملايين الكتب، مع أنّنا نعلم أنّ ابن سعيد الأندلسيّ خلال زيارته المدينة في عقب سنة ٦٤٨هـ[٤]، استفاد من ٣٦ مكتبة[٥]، فما بالك بالمكتبات التي لم يزرْها، وبالمكتبات التي أُنشئت خلال الثمان سنوات التي تلت ذلك؟

---

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٥١/٧.

(٢) سمط النجوم العوالي: العصاميّ: ٥١٩/٣.

(٣) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت: السرجانيّ: ١٦١-١٦٢.

(٤) كما يقول المقريّ في نفح الطيب: ٢٧٣/٢، (ينظر أيضًا: منتخَب المختار المذَيَّل به على تاريخ ابن النجار تقي الدين الفاسيّ: ١٤٥، ذيل مرآة الزمان: اليونينيّ: ١٩١/١)

(٥) ينظر دور الكتب العربيّة العامّة وشبه العامّة: العشّ: ٢٢٦، نقلًا من المستشرق جوزيف رينو.

ويبدو أنّ سبب هذا الوهم هو قول القلقشنديّ: «خِزانة الخلفاء العباسيّين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكُهم هُولاكُو المستعصمَ آخرَ خلفائهم ببغداد، فذهبت خِزانة الكتب في ما ذهب، وذهبت معالمها، وأُعفيت آثارها»[١]. فالقلقشنديّ كان صادقًا؛ لأنّه قد تحدّث عن خِزانة كتب الخلفاء العباسيّين، وليس عن عموم خزائن الكتب المنتشرة في بغداد.

ويقول مؤرّخ فارسيّ، انتهى من تأليف كتابه سنة ٨٩٩هـ: «بلغت إراقة الدماء حدًّا أنَّ نهر دجلة كان يجري دمًا وسط بغداد»، ثمّ يُورد بيتًا من الشعر بالفارسيّة ترجمتُه[٢]:

ضُرِّجَتْ تربةُ بغدادَ دمًا للخُلَفاء

ليتَ شِعْري أيُّ نهرٍ ذاكَ في بغدادَ يجري؟

وآخر من وصف ما أصاب بغداد وأهلها وصفًا دراماتيكيًّا امتزج بعضه بالخيال الدالّ على تعاطف الكاتب مع المدينة المنكوبة وسكانها، الباحث مايكل مورغان، فقال: «تبعث المعركة مع المغول على الشفقة؛ في البداية تُقتَل قوّات المستعصم بسرعة فائقة، ثمّ يموت مَن في بلاطه والمقدَّر عددهم بنحو ٣٠٠ شخص، ويُخنَق الخليفة حتى الموت بعد ذلك ببضعة أيام، ويدخل المغول إلى المدينة ويأخذون سكّانها البالغ عددهم قرابة ٨٠٠٠٠٠ نسمة إلى الصحراء الفسيحة، وتحت شمس بغداد الحارقة يُذبح الرجال والنساء والأطفال، ويتمّ وضعهم في أكوام فوق بعضهم البعض، ويتمّ نهب وسلب وتخريب مباني المدينة ثمّ حرقها في النهاية، وهكذا تتحوّل بغداد إلى مجرّد حجارة»[٣].

---

(١) صبح الأعشى: القلقشنديّ: ٤٦٦/١.

(٢) روضات الجنَّات في أوصاف مدينة هراة: الأسفزاريّ: ٣١٩/١-٣٢٠. وترجمنا البيت شعرًا ببحر مجزوء الرمل.

(٣) تاريخ ضائع: مورغان: ١٤٥.

وول سِتْرِيت[١] بغداد

لا نقاش في أهميّة بغداد التجارية منذ نشأتها، ولكن القيمة الحقيقيّة ظلت على الدوام هي روح الحضارة الرائعة التي تحملها وتجعل القلوب من شتّى بقاع العالم تهفو إليها؛ هذه الروح تتمثّل في علمائها، وأدبائها، وشعرائها، وفنانيها، ومهنيّيها، وفي كُتبها وما يدور في فلكها من صناعات؛ سواء في مستلزماتها أي مهنة الوِرَاقة وما يتصل بها، أو في المكتبات وهي أماكن صيانة وعَرض نتاجات عقول بني الإنسان، يقول ابن خلدون في تعريف الوَرَّاقين: أنّهم «الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها؛ فإنّ هذه الصناعة إنّما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكريّة وأمثال ذلك»، ويزيد إلى ذلك قوله: إنّ هذه الصناعة اختَصَّت بها الأمصار العظيمة[٢].

وكان في بغداد سوقان للورّاقين؛ أحدهما في جانب الرصافة في محلّة باب الطاق[٣]، وُصِفَت بأنّها «سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء»[٤]، والآخر في الكرخ في طاق الحرانيّ[٥] بمحلّة قصر وضّاح، حيث يقول اليعقوبيّ في كتابه الذي ألّفه سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م عن هذا الموضع: «وأكثر مَن فيه في هذا الوقت الورّاقون أصحاب الكتب، فإنّ به أكثر من مئة حانوت للورّاقين»[٦]، وقيل فيه قديمًا: «وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء في أيام الرشيد»[٧]. وبلغت هذه السوق من الشهرة أنّ أحد العلماء تُوفّي بالأهواز

(١) شارع المال (Wall street): أحد شوارع مانهاتن السفلى في مدينة نيويورك، ويُعدّ اليوم الواجهة الرئيسة للسوق الأمريكيّة؛ حيث توجد فيه بورصة نيويورك وكثير من الشركات الماليّة الضخمة.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٤٠١/١، ٤٢١.

(٣) ينظر: كتاب البلدان: ابن الفقيه: ٢٩٣، معجم الأدباء: ياقوت: ٢١٤٦/٥.

(٤) مناقب بغداد: مجهول: ٢٦، ينظر معجم البلدان: ٤٨٩/٣.

(٥) الفهرست: ابن النديم: ١٦٣، مناقب بغداد، ٢٦، المقابسات: التوحيديّ: ١٠٩، ١٤٦. وباب الطاق هي محلّة الصَرَّافيَّة حاليًا على ما حقّقه الأستاذ الشالجيّ في تعاليقه على نشوار المحاضرة: ٣٤٥/٥.

(٦) كتاب البلدان: اليعقوبيّ: ٢٤٥.

(٧) معجم البلدان: ٤٨٩/٣.

سنة (٢٧٤هـ) فحُملت كتبه إلى بغداد وبيعت فيه[١]، وكان درب أصحاب القراطيس يقع في المحلّة نفسها[٢]، وهو الموضع الذي يُباع فيه الورق، وقد ذُكر هذان الموضعان معًا في خبر خاصّ بالشاعر أبي نواس؛ فقيل: «كان له مجلس ببغداد في الكرخ في درب القراطيس، ومجلس بعسكر المهدي (الرصافة) في الورّاقين»[٣].

ومع اتِّساع المدينة فلنا أن نفترض أنّ أسواق الورّاقين قد اتَّسعت أيضًا. كانت بغداد تفوح عطرًا برائحة الأوراق والكتب، وبلغ من انتشارها أنّ مؤلِّفًا واحدًا استأجر أربعين ناسخًا يواصلون المبيت عنده في داره يبيِّضون له أحد مؤلّفاته وكان في أجزاء كثيرة[٤]، وهذا يعني نسخ مجموعاتٍ من هذا الكتاب وتوزيعها على الورّاقين لبيعها، وهو ما كان يعمله مؤلّفون آخرون حتى قال أحدهم: «احترق مرةً سوق باب الطاق، فاحترق من كتبي ألف وثمانون مَنًّا، كلّها سماعيّ»[٥]؛ هذا والرجل محدِّث قليل الشهرة، ويعني بذلك أنّه أودع نُسَخَها عند الورّاقين لبيعها.

ولم تقتصر وظيفة الورَّاقين على بيع الكتب، فقد كان كثير منهم على درجة عالية من العلم والثقافة؛ حتى إنّهم كانوا يُقرَنون بالعلماء، فنقرأ مثلًا: «قال جماعةٌ من أهل العلم وأكابر الورّاقين...»[٦]، وكانوا محطَّ أنظار من يريد الاستفهام عن معلومة أو رأي[٧]، وكانت

(١) ينظر: الفهرست: ١٦٧، معجم الأدباء: ٧٧٧/٢.

(٢) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: الطبريّ: ١٣١/٧، تاريخ مدينة السلام: الخطيب البغداديّ: ١٢٢/١٠، أخبار أبي نواس: ابن منظور: ١٣٩/١.

(٣) أخبار أبي نواس: ١٣٩/١.

(٤) ينظر: تاريخ مدينة السلام: ٤١٠/١٦، الأنساب: السمعانيّ: ٢٠٤/٤، التقييد: ابن نقطة: ٤٩٤/١.

(٥) تاريخ مدينة السلام: ٤٥/٣. وباب الطاق هو طاق أسماء في الرصافة. وزن كتبه يعادل ٦٤٨ كيلوغرامًا، المنّ الواحد يساوي رطلين بغداديّين، وكلّ رطلٍ يساوي ٣٠٠ غم (ينظر المكاييل والأوزان الإسلاميّة: هنتس: ٣١، ٤٦)

(٦) الفهرست: ابن النديم: ٤٢٠.

(٧) ينظر رسالة الغفران: المعرّيّ: ١٤٦.

دكاكين الورّاقين موضعًا لتلقي العلم من العلماء والأدباء أيضًا[١]، يقول العماد الأصفهانيّ: إنّه التقى الشاعر ابن شميعة ببغداد في سوق الكتب واستنشده أشعاره[٢]. وقد قيل عن المتنبي في صباه: إنّه «كان يتّبع أهل العلم والأدب ويلازم الورّاقين»[٣]، وقيل عن أحد العلماء: إنّه كان في بدء أمره «مؤدِّبَ كُتَّابٍ عاميًّا، ثمّ تخصَّص وجلس في سوق الورّاقين في الجانب الشرقيّ»[٤]؛ أي أنّه ارتقى علميًّا ليكون جديرًا بالجلوس في سوق الورّاقين. ولمعرفة رتبة الورّاق العلميّة، يكفي أن نذكر أنَّ اثنين مِن عمالقة مؤرِّخي الثقافة والعلوم - وهما ابن النديم صاحب الفهرست وياقوت الحمويّ - كانا ورَّاقَين.

وفي الوقت الذي كانت فيه التجارات المألوفة من بضاعات وموادّ غذائية وغيرها تسجِّل أعلى مدياتها في البيع والشراء في هذه المدينة، فإنّ أسواق الورَّاقين ببغداد كانت هي الـ(وول ستريت) الحقيقيّ فيها؛ لأنّها تحقّق المكسب الماليّ، وفي الوقت نفسه تحقق المكسب الأكثر أهمية وخطورة، وهو المكسب الفكريّ حتى قيل مثلًا: إنَّ إخوان الصفا حين أرادوا لرسائلهم الانتشار «كَتموا أسماءهم، وبَثُّوها في الورّاقين، ولقَّنوها للناس»[٥].

وفي سياسة تكميم الأفواه تلجأ الحكومات أيضًا إلى أسواق الورَّاقين، فبعد إعدام الصوفيّ الشهير بالحلّاج «أُحضر الورَّاقون وأُحلفوا على أن لا يبيعوا شيئًا من كتب الحلّاج ولا يشتروها»[٦].

وأسواق الورّاقين ببغداد هي (الوول ستريت)، لكنّها تختلف عنه في أنّها لا يصيبها الكساد؛ لأنّ الحركة دائبة فيها بتردّد أهلها إليها، أو الوافدين عليها من البلدان، إلّا في

(١) ينظر: الأنساب: ١١٨/١، الوافي بالوفيات: الصفديّ: ٨٥/٢.

(٢) ينظر الأنساب: ٢٦٢/٧. وكان لقاؤه به سنة (٥٥١هـ).

(٣) التذكرة الحمدونيّة: ابن حمدون: ٢٦٥/٩.

(٤) الفهرست: ١٨٠، وينظر معجم الأدباء: ٢٨٣/١.

(٥) الإمتاع والمؤانسة: التوحيديّ: ٥/٢، تاريخ مختصر الدول: ابن العبريّ: ٣٠٩. في الورّاقين: سوق أو أسواق الورّاقين أو حوانيتهم.

(٦) تجارب الأمم: مسكويه: ١٣٩/٥، وينظر: تاريخ مدينة السلام: ٧٢٠/٨، سير أعلام النبلاء: الذهبيّ: ٣٤١/١٤.

حالات اندلاع الفتن أو الاجتياحات الحربيّة؛ مثلما حدث حين دخل السلاجقة بغداد، أو حين أمر الخليفة المستعصم سنة (٦٥٤هـ) جيشه بالهجوم على محلة الكرخ، فاستُبيحت وأُحرقت[١]، أو كما حدث في الهجوم المغوليّ على بغداد الذي نناقشه؛ فهنا تتعطّل حركة المكتبات، أو يُصيبها الضرر والإحراق، أو تُدمَّر بفظاعة.

كانت المكتبات في بغداد ثروةً ماليّة هائلة يتداولها الناس، ولا تنخفض أسعارها، فإن أحسَّ التجار بفتور في حركة بيع الكتب بادروا إلى شحنها إلى البلدان على أمل تحقيق أرباح أعلى[٢]، وحدث العكس أيضًا؛ فقد سمع أحد كبار تجار الكتب العراقيين بوجود نفائس للكتب بمصر في خزائن كثيرة عند الطبيب أفرائيم بن الزفان فسافر إلى هناك، واشترى منه بمبالغ ضخمة عشرة آلاف مجلّد، لكنّ الوزير الأفضل سمع بذلك فأراد لتلك الكتب أن تظل في البلاد المصريّة، ولا تنتقل إلى بلد آخر، فأرسل إلى الطبيب الثمن الذي اتفق عليه مع التاجر العراقيّ، واشتراها لتستقرّ في مكتبته[٣]. ونعتقد أن ذلك التاجر بحكم حِسِّه التجاريّ ومهنته ما كان ليعود خالي الوفاض من مصر، ولا بدّ أن يكون قد اشترى كتبًا أخرى، وعاد بها إلى العراق ليحقّق المكاسب المضاعفة، فالشائع حتى في الخيال الشعبيّ أنَّ من يأخذ بضاعة إلى بغداد «يكتسب المِثْل مِثْلين»[٤]. إنّ المكتبة الشخصية للشريف المرتضى كانت تشتمل «على ٨٠ ألف مجلّد سوى ما أهدى منها إلى الأمراء»[٥].

تقول الباحثة الألمانيّة الراحلة زيغريد هونكه: «ظلت أسعار الكتب على ارتفاعها، لا لعامٍ أو عشرة بل لمئات السنين، ودُفعت ثمنًا للكتب كلَّ عام ملايين وملايين؛ فلقد خصّصت مكتبة النظاميّة - وهي المدرسة العليا الشهيرة ببغداد - سنويًّا ما يعادل مليونًا

(١) وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا إعادة كتابة التاريخ (ط٢)، ٧٩-٨٧.

(٢) ينظر دراسة في ياقوت وكتابه معجم الأدباء: عباس: ٢٨٨٨/٧-٢٨٨٩.

(٣) عيون الأنباء: ابن أبي أصيبعة: ٥٦٧-٥٦٨. وقد شغلَ الوزير الأفضل أحمد بن بدر الجماليّ منصب الوزارة خلال السنوات ٤٨٧-٥١٥هـ.

(٤) ألف ليلة وليلة: مجهول: ٥٦/٧.

(٥) الذريعة: أغا بزرك: ١٩٢/٧.

ونصفًا من الفرنكات الذهبية لشراء الكتب والمخطوطات»؛ وتقول أيضًا: «إنّ عشق الكتب لم يكن وقفًا على حفنة من العلماء، بل كان هواية العرب على اختلاف طبقاتهم؛ فكلّ متعلّمٍ من أكبر كبراء الدولة إلى بائع الفحم، ومن قاضي المدينة إلى مؤذّن المسجد، هو زَبون دائم عند بائع الكتب.

إنَّ متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصّة لعربيّ في القرن العاشر الميلاديّ / الثالث الهجريّ، كان أكثر ممّا تحويه كلّ مكتبات الغرب ...، وهكذا أصبحت تجارة الكتب - تمامًا كالصيدلة - هدية قدَّمها العرب للبشرية؛ والواقع أنَّ تاجرَ الكتب لم يُعرف كوسيط لنقل الثقافة ومتاجرَ الكتب [لم تُعرف] كمراكز للثقافة في المدينة، قبل أن يفعل العرب ذلك»[١].

ويؤيّد ما ذكرته هونكه قول الباحث آدم متز بشأن ما كان موجودًا في مكتبات بعض خزائن الكتب في الغرب بغية المقارنة بينها وبين الأعداد الهائلة للكتب في مكتبات العالم الإسلاميّ: «كان في مكتبة الكاتدرائيّة بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلاديّ ٣٦٠ كتابًا، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما يزيد على المئة بقليل؛ وفي خِزانة بامبرغ سنة ١١٣٠م ٩٦ كتابًا»[٢].

ونُشير إلى خِزانة مكتبة المدرسة المستنصريّة ببغداد التي وصفها ابن الفُوَطيّ - وهو الخبير بها - بقوله: «لم يوجد مثلها في العالَم»[٣]. وكان المؤرّخان ابن الساعي وابن الفُوَطيّ يشتغلان خازنينِ في هذه المكتبة أعوامًا من حياتيهما. وحدث أن كانت هناك مكتبات خاصّة فيقوم مالكوها بإهدائها إلى إحدى المكتبات العامّة، ومن ذلك أنّنا نجدُ العالم الشافعيّ محبّ الدين ابن النّجار المعروف بنزاهته وزُهده: «لم يترك وارثًا، وكانت تركته عشرين دينارًا وثيابَ بدنِهِ، وأوصى أن يُتصدّق بها، ووقف خزانتين من الكتب بالنظاميّة تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفةُ المستعصم»[٤].

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب: هونكه: ٣٨٨-٣٩٠.

(٢) الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ: متز: ٣٢٣/١.

(٣) تلخيص مجمع الآداب: ابن الفُوطيّ: ٣٧٥/٣.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير: ١٩٧/١٣.

قصّة تأسيس مكتبة

لكي نعرف درجة العشق العجيب للكتاب في عموم العالم الإسلاميّ بفعل القيمة العليا التي منحها الإسلام للعلم، هذه قصة حدثت في بغداد بطلها شريفٌ علويّ عالم عُرِفَ بتقواه وزهده في الدنيا، وحدثَ أنّ وزيرًا أُقصيَ من منصبه، فنَذَرَ لله أن يُهدي إلى ذلك العلويّ مبلغ ألف دينار إن أُعيد إلى الوزارة، ووفَّى بنذره عند عودته وأخبر الخليفة المستضيء العباسيّ بنذره، فقال المستضيء: وأنا أيضًا أرسل إليه ألف دينار، وسمعت محظيّة المستضيء السيّدة بنفشا - الذائعة الصيت بالبرّ والإحسان إلى الخَلق- فقالت: وأنا أرسل إليه ألفًا أيضًا. وحين هَبَطَت عليه هذه الثروة الضخمة لم يتصرَّف فيها، وبادر إلى بناء مسجد في قلب بغداد وأسّس في شطر منه مكتبة وَقَفَ فيها كتبَه، ولمَّا سمع صديق له بما صنع بادر إلى مشاركته في الوقفيّة، وجلب كتبًا كثيرة ووضعها في المكتبة[١].

وكان الخلفاء أنفسهم مولعين بتأسيس المكتبات أيضًا؛ فهذا الخليفة المستنصر عندما افتتح سنة(٦٣١هـ) صرحه العلميّ المدرسة المستنصريّة الذي بناه، نقل إلى مكتبتها «من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتويّة على العلوم الدينيّة والأدبيّة ما حَمَلَه مئة وستون حمّالًا، وجُعلت في خِزانة الكتب»، ثمّ طُلب إلى أحد كبار المشايخ أن يكتب فهرسًا لها، وطُلب إلى نجل هذا الشيخ - وهو مشرف على مكتبة الخليفة الخاصّة التي في داره - أن يعاون أباه ويرتب المكتبة ترتيبًا بحسب موضوعاتها ليسهل على الباحثين الوصول إلى ما يبتغونه منها[٢]، وهذا المستعصم شيَّد مكتبتين متقابلتين وراء دار الريحانيّين جوار باب بدر ووضع فيهما كتبه، وكانتا داخل بستان واسع[٣]، وكان في سوق بدر هذه سوق للكتب أيضًا[٤]. كما شيَّد وزيرُه ابن العلقميّ مكتبة في دار الوزارة افتتحها سنة (٦٥٤هـ) «وكانت في نهاية الحسن، وَوُضِع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيءٌ كثيرٌ، وامتدحها

(١) ينظر مراصد الاطّلاع: ابن عبد الحقّ: ١٣٢٢/٣.

(٢) ينظر كتاب الحوادث: مجهول: ٨١.

(٣) مراصد الاطّلاع: ١٣٢٢/٣.

(٤) الوافي بالوفيات: ٨٥/٢.

الشعراء بأبيات وقصائد حِسان»[١].

لدينا مقارنة أجراها عالم الرياضيات الشهير الحاسب الكرخيّ الذي كان مقيمًا في شطر من حياته ببغداد بين ما وجده عند أهل العراق من حبٍّ للعلم والمعرفة؛ ممّا كان يشجِّعه على أن يؤلِّف فيه كتابًا بين الحين والآخر، وبين ما وجد عليه الحال في وطنه لدى عودته إليه، فيقول: «لمَّا دخلتُ العراقَ ورأيتُ أهلَه من الصغار والكبار يحبُّون العلمَ ويعظِّمون قدرَه ويكرّمون أهلَه، صنَّفتُ في كلّ مدّة تصنيفًا في الحساب والهندسة، إلى أن رجعت إلى أرض الجبل[٢] وعُدِمْتُ فيها ما صنَّفتُه من حال العراق، فخَمَدَ الخاطر من التصنيف، وجَمَدَ الطبعُ عن التأليف...»[٣].

كان العراق مشحونًا بالثقافة والعلوم المتنوعة التي تعتمد بلا شكّ على الكتب وتتطلّب وجودها في كلّ مكان، ممّا جعل المواطن العراقيّ وكذلك العلماء والطلبة القادمين إليه من شتّى بقاع الأرض يشكِّلون أكبر تجمّعٍ ثقافيّ في الكرة الأرضيّة آنذاك، ويلمسون بركات المعرفة في جميع تفاصيل حياتهم، لقد كان بلدًا متقدِّمًا في كافّة الصُّعُد، وهذا التقدّم كان قائمًا على العلم والثقافة اللّذين عِمادهما الكِتاب؛ ويكفي أن نشير مثلًا إلى العناية الفريدة التي كان يحظى بها المواطن البغداديّ بما ذُكر من أنّ الموسيقى كانت تُستخدم للتخفيف من آلام المرضى الراقدين في المستشفيات العامّة، فلنقرأ ما يقوله إخوان الصفا: «واستخرجوا (أي الحكماء) أيضًا لحنًا آخر كانوا يستعملونه في المارستانات وقت الأسحار، يخفِّف ألم الأسقام والأمراض عن المريض ويكسر سَوْرتها[٤]، ويشفي من كثير من الأَمراض والأَعلال»[٥].

(١) البداية والنهاية: ٢٠٠/١٣.

(٢) بلاد الجبل أو الجبال رقعة جغرافية واسعة في إيران «كانت تضمّ مدن أصفهان وكاشان وساوة ولورستان وهمذان وقزوين وزنجان إلى كرمان شاه» (فرهنگ فارسي: مادة جبال).

(٣) إنباط المياه الخفية: الحاسب الكرخي: ٢. توفي الحاسب الكرخي نحو ٤١٠هـ.

(٤) السَّوْرة: الحِدَّة واستشراء المرض.

(٥) رسائل إخوان الصفاء: مجهول: ١٨٧/١، وينظر دراسات في الموسيقى الشرقيّة: فارمر: ٣٦٣، الذي يرى أنّ الأطبّاء في بغداد كانوا يستخدمون العلاج بالموسيقى في القرن العاشر الميلاديّ.

لهذا السبب قال أحد وزراء السامانيّين[١]:

لا تَعْجَبَـنْ مِنْ عراقـيٍّ رأيتَ لهُب حـراً مِن العِلْمِ أو كنـزًا مِن الأدبِ

واعجبْ لمِنْ ببلادِ الجهلِ منشأُهُ إنْ كانَ يَفْرُقُ بيـن الرَّأسِ والذَّنَبِ

الأحياء يستعيرون كتبًا من الموتى

من الظواهر اللافتة للنظر في بغداد وجود مقابر فخمة أُلحقت بها مكتبات ذات كتب قيِّمة، فحين بنى شرف الملك المستوفي أحد كبار العاملين في الدولة آنذاك قبرًا فخمًا للإمام أبي حنيفة بباب الطاق سنة (٤٥٩هـ)، وضع على القبر صندوقًا من الساج المنقوش وعليه ضبَّات الفضّة، وبنى إلى جانب القبر دارَ كتبٍ ومدرسة كبيرة[٢].

ونجد سلجوقي خاتون المعروفة بالخِلاطيّة الزوجة الأثيرة للخليفة الناصر العباسيّ قد شرعت بإقامة مقبرة لها في الجانب الغربيّ من بغداد[٣]، وخلال العمل بها تُوفّيت سنة (٥٨٤هـ) فأكملها الناصر وأنشأ فيها «خِزانة للكتب النفيسة تُعار لمن طَلَبَها بالرَّهْن»[٤]، وقد «اشتملت على أنواع المصنّفات وجواهر المجموعات التي بخطوط الأئمّة الثقات»[٥]، وبقيت قائمة بعد الناصر؛ فقد استفاد من بعض كتبها المؤرّخ ابن العديم لدى زيارته بغداد في سنة (٦٥٤هـ)[٦].

ولإثبات جدّيته كلَّف الناصر واحدًا من مشاهير علماء عصره في الحساب، والهندسة، والجبر، والمقابلة؛ وهو مبشّر بن أحمد الرازيّ البغداديّ المعروف بالبرهان «واعتمده

(١) يتيمة الدهر: الثعالبيّ: ٧٣/٤.

(٢) ينظر المقابر والمشاهد: ابن الساعي: ١١١.

(٣) موقعها في مشرعة الكرخ كما يقول ابن الكازرونيّ (مختصر التاريخ، ٢٤٦)، الذي قال الدكتور جواد في تعاليقه على الكتاب إن الموقع هو المشرعة المعروفة اليوم بشريعة الخضر الياس.

(٤) نساء الخلفاء: ابن الساعي: ١١٧-١١٨.

(٥) المقابر والمشاهد: ١٤٦.

(٦) ينظر: بغية الطلب: ابن العديم: ١٩٣٢/٤، المختصر من أخبار البشر: أبو الفداء: ١٩١/٣.

في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتونيّ السلجوقيّ، وبالمدرسة النظاميّة وبدار المسنَّاة، فإنّه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفيّة وأفرده لاختيارها»[١]؛ وأنشأ إلى جانبها رباطًا فخمًا للصوفيّة، «وغرسَ بين يديه بستانًا، كأحسن الجنان، يشتمل على فاكهة ونخل ورمان؛ وأسكنَ به أعيان الصوفية...، ووقف على التربة والرباط الأوقاف الجليلة الحُصُول، المحفوظة الأصول؛ وجُعِلَ لها ديوان مفرد بناظرٍ وكتَّاب، وغلمان وبوَّاب»[٢]. أي إنّ من يجلس في المكتبة مطالِعًا سيمتِّع عينيه أيضًا بالبستان والرَّوح والريحان؛ فأيُّ ربيعٍ للثقافة هذا؟

إنّ بلدًا يضمّ هذه الحشود من المتعلّمين والطلاب والمثقفين والشعراء والعلماء والأدباء ذوي الأذواق الرفيعة والترف ورهافة الحسّ والأناقة مع ما لديهم من مكتبات خاصّة وما يزخر به البلد من مكتبات عامّة، جعل انهياره تحت الضربات المغوليّة مدوِّيًّا وكارثيًّا حتى قال فارمر: «بسقوط بغداد بيد المغول سنة (١٢٥٨م)، واستيلاء المسيحيّة على غرناطة سنة (١٤٩٢)، ووقوع مصر بأيدي الأتراك العثمانيّين سنة (١٥١٧)، آذَنَ نفوذ الشعوب الناطقة بالضاد بالأفول ثقافيًّا وسياسيًّا...، نُهِبت أو دُمِّرت الثروات المادية والأدبية والعلمية التي تجمَّعت على مدى قرون كانت بغداد فيها عاصمة الإمبراطوريّة الواسعة للخلفاء العباسيين؛ وبهذا انتهت واحدة من أعظم وأروع الحضارات في التاريخ»[٣]. ويكمل هذا المعنى الباحث والدبلوماسيّ الأمريكيّ مورغان بالقول: «إنَّ الأثر الذي خلَّفته الأمواج المتتالية من الغزوات الآسيوية الوسطى بقيادة السلاجقة والمغول والعثمانيين على قلب الأراضي الإسلامية هو الدمار التدريجي لمراكز الابتكار الإسلاميّ»[٤].

مغول ما قبل المغول

من الضروري الإشارة إلى ما زُعِمَ من أنَّ العرب المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية

(١) تاريخ الحكماء: القفطيّ: ٢٦٩.

(٢) المقابر والمشاهد: ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) دراسات في الموسيقى الشرقية: فارمر: ١٧٢، ١٨٨.

(٤) تاريخ ضائع: مورغان: ٢٩٠.

في مصر على عهد عمرو بن العاص؛ فبعد كلّ الحقائق التاريخية الموثَّقة التي أثبتت أنّ المكتبة أُحرقت قبل مئات السنين من وصول المسلمين إلى مصر، نجد من يردِّد هذه الفِرية اليوم ليقول بعدها: إذن علامَ تُدينون المغولَ على إحراق مكتباتكم؟ لقد فعلتموها أنتم أيضًا.

أُريد لهذه الفرية أن تظلّ وسيلةً لتفريغ الحقد وإثارة البغضاء؛ تقول العالمة الراحلة زيغريد هونكه: إنّها «الفِرْيَة المُزَيِّفة للتاريخ التي لا يُراد لها أن تُمحى أبدًا»، ثمّ تعقِّب: «إنَّ هذا الانحطاط الفكريّ السادر يبيِّن مدى إلحاح الغرب على إلصاق الأحكام المسبّقة الظالمة بالعرب، ومدى استمتاعه غَيًّا بتزييفه لحقائق التاريخ»، وضربت مثلًا بأنّ قومًا في ألمانيا غضّوا النظر سنة (١٩٨٩) عن الحقائق التاريخية السافرة لكلّ ذي عينين وروَّجوا من جديد لهذه الفِرية، ثمّ أجملت ما حدث لمكتبة الإسكندرية، بقولها:

«إنّ المجمع الذي ضمَّ أكاديمية الإسكندريّة التي شيدها الملك بطليموس الأول سوتر عام (٣٠٠ ق.م)، كان مصدر إشعاع علوم الإغريق الهلينية بمكتبته الضخمة التي حوت قرابة مليون مخطوطة، قيل: إنّها جمعت كلّ ما كُتب باللغة اليونانية. على أنّ ذلك المجمع الشامل لكافّة أنواع العلوم والمعارف وقتذاك، كانت ألسنة النيران قد أتت عليه عام (٤٧ ق. م) إبَّان حصار قيصر للإسكندرية، ثمّ إنَّ كليوباترة أعادت تشييد المكتبة وتزويدها بعدد لا يُستهان به من المخطوطات من مكتبة برجمانون المصريّة. على أن القرن الثالث الميلاديّ كان بداية التدمير المخطّط؛ فترى القيصر كراكلا [إمبراطور رومانيّ حكم في السنوات ٢١١-٢١٧م] يلغي الأكاديمية ويحلّها ويسفك دماء علمائها في مذبحة وحشية فظيعة.

كما أنّ البطريرك النصرانيّ عام (٢٧٢م) يُغلق المجمع ويشرِّد علماءه آمرًا بحرق (مؤلّفات الكفرة) فيبيدها المشتعِلون حماسًا دينيًّا من النصارى.

وفي عام (٣٦٦م) يحوِّل القيصر فالنس السيزاريوم إلى كنيسة وينهب مكتبته، ويحرق كتبها، ويضطهد فلاسفته، ويلاحقهم بتهمة ممارسة السحر والشعبذة.

في عام (٣٩١م)، مواصلةً لاستئصال شأفة الكفرة، يُفلِح البطريرك ثيوفسلوس في

الحصول على إذن القيصر ثيودوزيوس لهدم السرابيوم كبرى الأكاديميات وآخرها وموئل الحكمة في العصور القديمة والقبلة الذائعة الصيت التي يحج إليها طالبو الحكمة من كلّ صوب، ويترك مكتبتها بما حوته من ٣٠٠٠٠٠ مخطوطة نهبًا للنيران، قريرَ العين بتشييده ديرًا وكنيسة على أنقاضها. أمّا ما نجا ومَن نجا فقد أمسى غرضًا لعصابة نصرانيّة من الغلاة المراهقين، انتشرت في الإسكندرية في القرن الخامس الميلاديّ، تولَّت مواصلة تدمير علوم الكفرة وفلسفتهم وتحطيم مراكز ثقافتهم وآثارهم ومكتباتهم والهجوم على علمائهم»، ثمّ تخلص إلى القول: «هكذا نرى أنَّ المكتبات القديمة في مصر جميعًا لم يكن لها أيّ وجود أيام دخول العرب الإسكندرية عام ٦٤٢م»[١].

وينبغي التذكير أيضًا بأنّ بعض الغزاة ممّن سبقوا المغول ارتكبوا ما ارتكبه هؤلاء؛ بحيث يمكن القول: إنّ بعض تصرّفات غزاة ما قبل المغول جعلت الانتهاكات والاغتصاب والقتل وتعذيب المدنيين لاستلاب أموالهم ومدَّخراتهم. وإحراق المكتبات، أمرًا شائعًا وكأنّه القانون الطبيعيّ لمن يحقِّق النصر في الحروب.

فعندما وصل السلطان السلجوقيّ طغرل بك إلى بغداد سنة (٤٤٧هـ) بطلب من الخليفة العباسيّ لإنقاذه من خطر البساسيريّ، استخدم أفرادُ جيشه قسوتهم التي عُرِفوا بها - ومعروف أنَّ «السلاجقة ينهبون ويقتلون حيثما حلُّوا»[٢] - فـ«انتشر الغُزُّ السلجوقية في سواد بغداد، فنهبوا من الجانب الغربيّ من تكريت إلى النيل[٣]، ومن الشرقيّ إلى النهروان وأسافل الأعمال، وأسرفوا في النهب...، ونَهَبَ العسكرُ ما بين واسط والبصرة والأهواز»[٤]، ثمّ دخلوا بغداد نفسها، وشرعوا «في خراب البلد، فأحرقوا الأسواق والدروب، وأخذوا الناسَ فعاقبوهم واستخرجوا الدنانير؛ ودام النهب والحريق والقتل حتى خربت بغداد ودَثَرتْ من الجانبين، ولم يبقَ غير حريم دار الخلافة وما فيه إلَّا آحاد الناس، ومات

(١) الله ليس كذلك: هونكه: ٧٣-٧٤، ٧٥.

(٢) تاريخ البيهقيّ: البيهقيّ: ٦٢١.

(٣) بلدة تقع شمالي مدينة الحلّة بالعراق وتابعة لها إداريًا.

(٤) الكامل في التاريخ: ابن الأثير: ٦١٣/٩، ٨/١٠، تاريخ الإسلام: ٦١٤/٩.

بالجوع والبرد كثيرٌ من الناس»[١]. وقوله: «فعاقبوهم واستخرجوا الدنانير» يشير إلى أنهم قد كانوا يُخضعون الناس لعمليات تعذيب ميدانية في البيوت والشوارع ليعترفوا بالأماكن التي خبَّأوا فيها أموالهم ومدَّخراتهم، وكثيرًا ما يحدث أن يموت بعض المحتجَزين لديهم تحت التعذيب، فتذهب دماؤهم هَدْرًا.

ومن بين ما شمله الإحراق والتدمير مفخرة من مفاخر بغداد العلميّة، وهي دار العلم التي بناها الوزير البويهيّ سابور سنة (٣٨١هـ) في الكرخ من بغداد، وضمّت مكتبتها آلاف الكتب، فضلًا عن أنّها كانت تستضيف بعض العلماء، فيقيمون فيها مدّة تُصرف عليهم نفقاتٍ من أموال الدار[٢]، وقد أشار إلى حريقها ياقوت بقوله: «ولم يكن في الدنيا أحسن كتبًا منها...، احترقت في ما أُحرق من محالِّ الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية إلى بغداد»[٣].

وكان السلاجقة قبل ذلك قد دخلوا مدينة الريّ مدينة العلم والعلماء والمكتبات، فأذاقوا أهلها الذلَّ، والهوان، والقتل الفظيع وسبوا نساءها وبناتها حين اجتاحوها سنة (٤٣٥هـ)، فـ«نهبوها وهدموا مساجدها ومنازلَها، وسَبَوا الحَريم، وقتلوا معظم أهلها ولم يبقَ فيها سوى ٣٠٠٠ بعد أن كانوا ١٠٠٠٠٠ ويزيدون»[٤]، ولا بد أن يكونوا أحرقوا مكتباتها التي اشتُهرت بها (وبعضها كان في المساجد)، فالكتاب يسهل إحراقه بعد إحراق البشر وبعد إحراق المساجد الأمر الذي يدلّ على قلّة ارتباطهم بالدين.

كلّ ذلك أعاد إلى أذهان أهل الريّ مذابح محمود الغزنويّ المروِّعة بحقّهم حين اجتاح المدينة سنة (٤٢٠هـ) وارتكب القبائح بحقّ سكّانها. أمّا المكتبة العامّة في الريّ فيقول المؤرّخ أبو الحسن البَيْهَقيّ عن أعداد كتبها الهائلة وما أحرقه محمود منها إنّه

(١) مرآة الزمان: سبط ابن الجوزيّ: ١٢/ ٣٦٦.

(٢) ينظر دور الكتب العربيّة العامّة وشبه العامّة: العش: ١٤٣-١٤٤.

(٣) معجم البلدان: ٧٩٩/١، وينظر الوافي بالوفيات: ٧٣/١٥. وظلّت هذه المكتبة تقدِّم خدماتها مدّة ٦٦ سنة (ينظر المنتظم: ابن الجوزي: ١٧٢/١٥).

(٤) مرآة الزمان: ٢١٨/١٢.

طالعَ فهرست كتبها فوجده في عشرة مجلّدات، وإنَّ «السلطان محمودًا لمَّا وَرَدَ إلى الريّ قيل له: إنّ هذه الكتبَ كتبُ الروافض وأهل البِدَع، فاستخرج منها كلَّ ما كان في علم الكلام وأمرَ بحرقه»[١].

ويقول ابن الأثير: «أحرقَ كتبَ الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم، وأخذ من الكتب ما سوى ذلك مئةَ حمل»[٢]، بل لقد ابتكر محمود الغزنويّ عقوبةً جديدة يتخلَّص بها من الكتب وحاملي الأفكار التي فيها؛ فحين استولى على الريّ في هجومه هذا، وأسقط الحكام البويهيّين الديلم، وكانوا شيعة، فَعَلَ ما لم يفكِّر به حتى المغول، فقد «نصب المشانقَ الكثيرةَ، وصَلَبَ كبارَ الدَّيلم على الأشجار، وألبسَ قسمًا منهم جلودَ الثيران، ونفاهم إلى غزنين، وأخرجَ من بيوتهم خمسين حملًا من كتب الروافض والباطنية والفلاسفة، ووضعها تحتَ الأشجار التي عُلِّقَ عليها المشنوقون وأَشعَلَ فيها النيران»[٣].

على أن لا ننسى ما صُنع بكنوز مكتبة الفاطميّين في القاهرة، وكانت هائلة ضمَّت ٤٠ خِزانة، منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة، واشتملت على ما قُدِّرَ بين ١٢٠٠٠٠و ٢٦٠٠٠٠٠ كتاب[٤]؛ فبعد أنْ أتمَّ صلاح الدين الأيوبيّ عملية اغتيال العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميّين، بادر إلى الاستيلاء على الكنوز والذخائر التي في قصورهم «وأخذ كلّ ما صلح له ولأهله، ولأمرائه، وخواصّ مماليكه، وأوليائه من أخاير الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس...»، ثمّ طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدّة عشر سنين[٥]، وأرسل منها هدايا إلى نور الدين زنكي في الشام وإلى الخليفة العباسيّ ببغداد، وتنقَّلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

---

(١) معجم الأدباء: ٦٩٧/٢، الدر الثمين: ابن الساعي: ٣٠٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣٧٢/٩، وينظر نهاية الأرب: النويريّ: ٣٦/٢٦.

(٣) مجمل التواريخ والقصص حفيد المهلَّب: ٤٠٤، نقلًا من تاريخ الري للوزير أبي سعد الآبيّ.

(٤) ينظر: الذخائر والتحف: الرشيد بن الزبير: ٢٦٢، نزهة المقلتين: ابن الطوير: ١٢٧. وقد فصَّل ابن الطوير القول في أقسامها وفهرستها الموضوعيّ، الوافي بالوفيات: ٣٦٦/١٧، ابن كثير: ٣٣١/١٢، اتعاظ الحنفا: المقريزيّ: ٣٣١/٣.

(٥) ينظر كتاب الروضتين: أبو شامة: ١٩٣/١-١٩٤.

يقول الدكتور أحمد فؤاد سيِّد مستندًا إلى كتابات العماد الأصفهانيّ وأبي شامة والمقريزيّ وضياء الدين ابن الأثير: «تحوَّل (صلاح الدين) إلى كتب الدعوة الإسماعيليّة التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطميّ، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم؛ بحيث صارت تُعرف بكُتْبان الكتب، ثمّ فرق الكتب غير المذهبيّة التي صُودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته مثل العماد الأصفهانيّ، والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهانيّ[١]، ممّا يؤكّد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة فقط لترويجها للقضية السياسيّة التي ينادي بها خلفاء الفاطميّين...، أحرقَ صلاح الدين كتب الدعوة بمكتبة القصر الفاطميّ، وقامت السلطات الأيوبيّة بالشام بإحراق كتب الإسماعيليّة، والمعتزلة، والقدريّة، والمتكلّمين، والقبض على كلّ مَن يُضبَط في منزله شيء منها».

ثمّ يسوِّغ الدكتور سيِّد إحراق صلاح الدين للكتب أنّ حكَّامًا آخرين قاموا بذلك، فيقول: «وفي رأينا أنَّ إحراق مكتبة القصر الفاطميّ لم يكن خطأً كبيرًا وجريمة ثقافيّة من جانب صلاح الدين كما ذهب البعض، بل هو عمل مقصود استهدف القضاء على كتب الدعوة الإسماعيليّة فقط، والحقيقة أنّ إحراق كتب الدعوة الإسماعيليّة بمصر يذكِّرنا بإقدام الخليفة العباسيّ القادر بالله والسلطان السُّنِّي محمود بن سبكتكين الغزنويّ على إحراق كتب الرافضة (الشيعة)، والمعتزلة، والمتكلّمين في بلاد الري والعراق، وخراسان في سنتي (٤٠٨ و ٤٢٠هـ) واستتابتهم عن المناظرة في مذاهبهم»[٢]. أكان ذلك عملاً مشرِّفًا؟

قوة المعدَّات المغولية

ولأنّ الأمر يتعلّق بقوّة التدمير والإحراق التي لدى القوات المغوليّة المتقدّمة نحو بغداد وخصوصًا ما قبل إحراق مكتباتها، لابدَّ من معرفة حجم هذه القوّة التي فُوجئ بها الخليفة المستعصم وقادته العسكريّون.

فبعد أن أصدر الملك المغوليّ منكو قاآن الأمر لشقيقه هُولاكُو بفتح غرب إيران (قلاع

(١) كان أبو شامة دمشقيًّا.

(٢) تاريخ مصر الإسلاميّة زمن سلاطين بني أيوب: ٦١-٦٢.

الإسماعيليّة)، والعراق، والشام، ومصر[١]، بدأ هذا بجمع القوات والأسلحة والمعدات منذ (٦٥٠هـ)، ثمّ تحرّك في (٦٥١هـ)، ولكي يعزِّز قوة جيشه «أرسل إلى بلاد الخِطا، ليُحضروا ألفَ وحدة[٢] من الخِطائيّين[٣] المَهَرة في إطلاق قذائف المجانيق وقاذفات النفط والمجانيق قاذفات السِّهام»[٤]. وحقيقة هذه المجانيق التي تُطلَق بواسطتها السِّهام[٥] أنّها تحتوي على ثلاثة أوتار تنطلق منها السهام دفعةً واحدة «ويصل مدى السهم الواحد منها إلى ثلاثة أو أربعة فراسخ»[٦]، وقال الجوينيّ: إنّ مدى سهامها يصل إلى ٢٥٠٠ قدم[٧]، وكان المغول يستعملونها في حروبهم؛ ممّا كان يُحقّق لهم تفوُّقًا على رُماة السهام الذين يُطلقون السهام منفردةً.

وكان هذا الطاقم فضلًا عن تولّيه مهمّة إطلاق المجانيق، يتولّى أيضًا مهمّة إطلاق السهام الناريّة التي كانت آلات تعمل بواسطة عجلات[٨]. وكان الصينيّون بارعين جيلًا بعد جيل في فنون الحصار والمدفعيّة والنقل المائيّ عن طريق المراكب[٩] وفي إقامة الجسور[١٠].

(١) جامع التواريخ: رشيد الدين: ٢ (١)/٢٣٤، ٢٣٧.

(٢) ما نسميه اليوم بالطاقم.

(٣) نسبة إلى بلاد الخِطا، وهي بلاد الصين (ينظر ديوان لغات الترك: الكاشغريّ: ٢٨/١). وتقول الباحثة الصينيّة المعاصرة دانغ إي دان: «إنَّ اسمي الصين والخِطا يُطلقان لدى رشيد الدين على الصين الشماليّة» (تعاليقها على جامع التواريخ، القسم الخاصّ بتاريخ الصين، ١٥٩ - ١٦٠).

(٤) جامع التواريخ: ٢/ ٦٨٦- ٦٨٧ (الأصل الفارسيّ)، ٢ (١) / ٢٣٥ (الترجمة العربيّة؛ وهي ترجمة ناقصة)، وينظر: تاريخ مختصر الدول: ٤٦٠-٤٦١، تاريخ الزمان: ٢٩٨.

(٥) ينظر فرهنك فارسي، مادة چرخ.

(٦) ابتداء دولة المغول: قطب الدين الشيرازيّ: ٨٠.

(٧) ينظر تاريخ جهانكشاي: الجوينيّ: ٧٠٨/٣.

(٨) ينظر تاريخ فتوحات مغول: ساندرز: ٢٣٤.

(٩) ينظر تاريخ الصين: إليسيف: ١١٢.

(١٠) ينظر موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين: نيدهام: ١٣٢.

أبواب الجحيم

حين انتهى هُولاكُو من السيطرة على قلاع الإسماعيليّة في إيران، وقتل آخر ملوكهم سنة (٦٥٥هـ)، تقدَّم بجيشه حتى وصل مدينة همذان الإيرانيّة، أي حينما كان على بعد مسير ثلاثة أشهر من بغداد[١]، فأرسل إلى الخليفة العباسيّ المستعصم بالله رسولاً يتوعّده، ويطلب إليه النزول عند شروطه، وأنَّ عليه - كي لا تقع الحرب بين الجيشين المغوليّ والعباسيّ - تسليم البلاد لوليّ عهده والقدوم لمقابلته، فإنْ لم يرغب بالحضور فبإمكانه إرسال وزيره ابن العلقميّ والقائدَين العسكريَّين سليمان شاه والدويدار الصغير ليبلغوه ما يريد أن يقوله له بدقَّة.

وهكذا فهولاكو طلب المستوى السياسيّ في الدولة المتمثِّل بالوزير، والعسكريّ المتمثِّل بأعلى قائدَين في الجيش العباسيّ، فاستشار الخليفة وزيرَه ابن العلقميّ عن السبل التي ينبغي اتِّخاذها بهذا الشأن، فقال له: إنّه ينبغي دفع هذا العدوّ ببذل المال؛ لأنَّ الأموال تُجمع وتُدَّخر لكي تكون صيانةً للأعراض والأرواح، وأنَّ عليه أن يبعث بوفد فيه الرسل الكُفاة الدُّهاة يحملون الهدايا، وأن تكون الخطبة والسكة باسم هُولاكُو؛ فأعجب الخليفة بهذا الرأي وطلب أن يُنفَّذ هذا المقترح، ولكن الدويدار الصغير الذي كانت العلاقات بينه وبين الوزير متوتّرة «أرسل إلى الخليفة رسالةً بالاتفاق مع الأمراء الآخرين وسفلة بغداد[٢]؛ يقول: إنّ الوزير دبَّر هذه الحيلة لمصلحته الخاصّة لكي يتقرب زلفى إلى هُولاكُو ويُلقي بنا نحن الجنود في البلاء والمحنة، ولكنّنا سوف نرقب مفارق الطرق، ونلقي القبض على الرُّسُل، ونأخذ ما معهم من أموال، وسنجرِّعهم أنواعَ العذاب والعناء. فَعَدَلَ الخليفةُ بسبب هذا الكلام عن إرسال المال»[٣].

---

(١) ينظر ابتداء دولة المغول: ٩٠.

(٢) في الأصل الفارسيّ لجامع التواريخ: (رُنود بغداد)، وقد أبقاها السادة المترجمون إلى العربيّة على حالها (رُنود بغداد)، لكنّ المترجمين القدماء لجامع التواريخ إلى العربيّة ترجموها بـ (السفلة)؛ وهي ترجمة دقيقة.

(٣) جامع التواريخ: ٢ (١)/ ٢٧٢، وينظر: تاريخ مختصر الدول: ٤٧٢. البداية والنهاية: ٢٣٤/١٣.

وكانت قوة الدويدار تكمن - فضلًا عن كونه قائد الجيش - في أتباعه من أوباش بغداد وأراذلها الذين كانوا يلازمونه في الليل والنهار[١].

ثمّ إنّ أولئك القادة والأمراء العسكريّين بقيادة الدويدار الصغير وسليمان شاه الأيوائيّ وفتح الدين ابن كر - وهم أكبر قيادات الجيش العباسيّ - ذهبوا إلى بيت الوزير ابن العلقميّ واجتمعوا فيه «وأطلقوا ألسنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين: إنّه صديق المطربين والمساخرة وعدوُّ الجيوش والجنود، وإنّنا أمراء الجيش بِعْنَا كلَّ ما ادَّخرناه في عهد والده»[٢]. كانوا يفكِّرون بأموالهم التي يقولون إنّهم خسروها في عهد المستعصم ولم يذكروا أين خسروها؟

كان على الخليفة أن يتّخذ القرار الحاسم؛ إمّا بالقتال، فيبذل الأموال لإعداد جيش يتناسب والتحدِّي الذي يشكِّله الجيش المغوليّ، أو فتح باب التفاوض لتجنيب البلاد ما حلَّ بها من كوارث هائلة فيما بعد، وكان بإمكانه المحافظة - في الأقلّ - على حياة السكّان وإنقاذهم من المذابح الجماعية التي ارتكبها المغول بحقِّهم، والأسر، وسبي نسائهم وبناتهم، وبيعهن جواري في أقصى بقاع الأرض، والمحافظة على بغداد من التدمير الذي طالها وغيرها من المدن العراقية.

في حين نجد الجيش العباسيّ قليل العدد والعُدَّة؛ إذ قُدِّر عدد أفراده بين ١٠-١٥ ألف جندي[٣]، لم يكن مستعدًّا لخوض معركة مع الجيش المغولي المتفوِّق عدداً وعُدَّة، الذي «ملأ جنودُه الفضاء من بلاد فارس إلى بلاد الروم بأعداد لا حدَّ لها ولا حصْر»[٤]، وقيل: إنَّ تعداده بلغ ٢٠٠٠٠٠ مقاتل[٥]، مع مَن انضمَّ إليهم من الحكّام المسلمين وغيرهم ممّن

(١) كما يقول رشيد الدين في جامع التواريخ: ٢ (١)/ ٢٦٣.

(٢) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٧٣.

(٣) ينظر: ابتداء دولة المغول: ٩٤، جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٥، روضة أولي الألباب: البناكتي: ٤١٧، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه (اختيار الذهبيّ): ابن الجزريّ: ٢٤٤، البداية والنهاية: ٢٣٤/١٣.

(٤) ابتداء دولة المغول: ٩٠.

(٥) استندنا في ذكر هذا الرقم إلى الرواية الشاميّة/المصريّة (ينظر: طبقات ناصري: منهاج السراج:

جاؤوا بجنودهم ومعدَّاتهم لدعم الغزاة المغول وشاركوا فعليًّا في الهجوم على بغداد[١]، وقد انفرد باحث معاصر بالقول: إنَّ «قوّات الخليفة المستعصم عام ١٢٥٨م/٦٥٦هـ كانت أقوى وأكبر عددًا وعُدَّة من قوات الغزاة المهاجمين»[٢]!!.

ولم يُعِرْ هُولاكُو أهمّيّة لتهديد الخليفة، وعبرَ الحدود العراقيّة وأقام معسكراته في خانقين التابعة لمدينة بعقوبة، وانطلق منها إلى بغداد ونزل في الجانب الشرقيّ منها (الرصافة) يوم ١١ من المحرم سنة (٦٥٦هـ)، ثمّ «تدفَّق جيش المغول كالنمل والجراد من كلّ جهة وناحية؛ فحاصروا أسوار بغداد»[٣].

فكّا الكمّاشة المغوليّة

كان هنالك جيشان للمغول

الأول: جيش بقيادة هُولاكُو متموضع في جانب الرصافة، يحاول فتح ثغرة في سور بغداد باستخدام قذائف المجانيق.

الثاني: جيش القائد المغوليّ بايجو نويان المتموضع في الكرخ الذي كان خاليًا تقريبًا من سكانه[٤] الذين كانوا قد عبروا دِجلة ولجأوا إلى الرصافة بعد سماعهم بتقدّم الجيش المغوليّ باتجاههم، وكان هذا الجيش يُطلق السهام بعيدة المدى باتجاه الرصافة فكانت تعبر دجلة لتشكِّ بحيطان المدرسة المستنصريّة، وقد أدّت إلى مقتل كثير من المواطنين[٥]، وبحسب الرواية البغداديّة فإنّ أحد تلك السهام دخل من شبّاك في قصر

١٩٥/٢، سير أعلام النبلاء: ١٨٢/٢٣، تاريخ الإسلام: ٢٦/٤٨).

(١) ينظر تفاصيل وافية عن هذه الجيوش المسلمة المساندة في كتابنا إعادة كتابة التاريخ (ط٢)، ٩٤-٩٦، سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتّهام: الغامديّ: ٣٥٢.

(٢) كتب تحترق: بولاسترون: ١٣٧، ولم يذكر الباحث الفاضل المصدرَ الذي استند إليه في ذلك.

(٣) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٦.

(٤) ينظر: مختصر التاريخ: ابن الكازرونيّ: ٢٧١، الفخري: ابن الطِّقْطَقَى: ٣٣٥.

(٥) ينظر مختصر التاريخ: ٢٧١-٢٧٢.

الخليفة، فأصاب جارية كانت ترقص بين يديه فقتلها، فانزعج الخليفة و«أمر عند ذلك بعمل ما يحول بين شبابيك الدار وبين الرُّماة، فعُمِلَت ستائر من ألواح الخشب»[١]. وتؤكِّد الرواية الشاميّة / المصريّة ذلك بالقول: «وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كلّ جانب حتى أُصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتُضحِكُه، وكانت من جملة حظاياه وكانت مولدة تسمّى (عرفة)، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعًا شديدًا»[٢].

الإجراءات المستعصميّة المتأخّرة

على الرغم من التقصير المعروف الذي اشتُهر به المستعصم في عدم إعداده جيشًا قويًّا قادرًا على مواجهة المخاطر؛ بسبب غفلته وانهماكه بهواياته الخاصّة كاللعب بالطيور، واستماع الألحان والغناء، والبحث عن اللاعبين بالطيور والموسيقيّين والمطربين في شتّى أنحاء بلاده، وجلبهم إلى قصره، وعلى حدِّ تعبير الذهبيّ: «كان يلعب بالحَمَام، ويهمل أمر الإسلام»[٣]، وبسبب بخله وإيقاف رواتب حشودٍ من أفراد القوات المسلّحة؛ أدّى ذلك إلى تركهم الخدمة والتحوّل إلى شحاذين يتسوّلون على أبواب البيوت والجوامع للحصول على بعض ما يبقيهم وأُسرَهم على قيد الحياة[٤].

وكان بعضهم «يطلبون مَن يستخدمهم في حمل القاذورات، ومنهم من يكاري على فرسه ليَصِلُوا إلى ما يتقوَّتون به»[٥]، ولكن بعد أن أصبحت القوات المغوليّة داخل الأراضي العراقيّة، أوكلَ إلى وزيره ابن العلقميّ وظيفةَ تجميعِ المتطوِّعين من الشبّان والرجال وإعادة تأهيلهم للقتال، وأن يضعهم بعد انتهاء التدريب تحت إمرة القائد العسكريّ

(١) كتاب الحوادث: ٣٥٥، ينظر عيون التواريخ: ابن شاكر: ١٣٣/٢٠، البداية والنهاية: ٢٣٣/١٣، عقد الجمان: العينيّ: ١٧١.

(٢) البداية والنهاية: ٢٣٣/١٣.

(٣) تاريخ الإسلام: ٨١٨/١٤.

(٤) ينظر: كتاب الحوادث: ٣٥٠، البداية والنهاية: ٢٣٤/١٣، عيون التواريخ: ١٢٩/٢٠.

(٥) طبقات الشافعيّة الكبرى: السبكيّ: ٨/ ٢٦٣.

سليمان شاه، فامتثل الوزير لأمر الخليفة الذي تعهَّد ببذل الأموال من خِزانة الدولة لتنفيذ هذه العمليّة، وقد تدفَّق المتطوِّعون على ميادين التدريب، وحين صاروا حشودًا كبيرة طلب إلى الخليفة أن يُطلق الأموال لإنفاقها عليهم، فاعتذر الخليفة عن ذلك[١].

ومع ذلك فإنَّ الخليفة حين رأى أثر السهام المغوليّة في إلحاق الخسائر الفادحة بسكّان بغداد، أيقن بخطورة الموقف، وأمر بصرف مبلغٍ من المال؛ لتشكيل قوّةٍ من الرُّماة يقفون على أسوار بغداد للردّ على السهام المغوليّة، غير أن رجال البلاط سرقوا أكثر الأموال المخصّصة لذلك، يقول ابن الكازرونيّ، وكان في بغداد آنذاك: «وتقدَّم الخليفةُ بإقامة جماعةٍ من الرّماة على السور وإطلاق مالٍ كثير إليهم؛ فخرج جماعة من الأعيان وأعوان الديوان، والمالُ معهم، وشرعوا في الإثبات (أي تسجيل أسماء المتطوِّعين) وإطلاق اليسير وسرقة الباقي شَرَهًا إلى المال»[٢] هذا في جانب الكرخ.

أما جانب الرصافة فقد واصل المغول استخدام سلاحهم المؤثِّر؛ وهو المجانيق التي كان عملها إطلاق الأحجار الثقيلة الوزن والقذائف المشتعلة وقارورات النفط «وكانت ترمي أحجارًا يتراوح وزنها بين ١٠٠-٥٠٠ مَنّ»[٣]، وكان تأثير القذائف الحارقة بليغًا في المدينة حين نعلم أنّ «مباني بغداد معظمها [مبنية] بالقصب والطوب...، وكثيرًا ما يستعمل أهل العراق القار في أبنيتهم؛ ولا سيّما في الحمامات وأماكن الماء»[٤]، كما يقول ابن سعيد الذي كان قد زار المدينة قبل وصول المغول إليها.

---

(١) ينظر جامع التواريخ: ٢ (١)/ ٢٧٤.

(٢) مختصر التاريخ: ٢٧٢.

(٣) ابتداء دولة المغول: ٩٥، وينظر: جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٧. بالاستعانة بفالتر هنتس (المكاييل والأوزان الإسلامية، ٣١، ٤٦)، فأوزان هذه القذائف تتراوح بين ٦٠-٣٠٠ كيلو غرام.

(٤) الجغرافيا: ابن سعيد: ١٥٨، ١٥٩، يقول ابن بطوطة إن أكثر حمامات بغداد مطلية بالقار (تحفة النظّار، ٦١/٢). في الحقيقة فإنهم كانوا - وهو ما شاهدناه إلى مدة قريبة في عصرنا أيضاً - يستعملون سيقان أشجار الحَوْر للسقوف ثم يبنون السقوف فوقها.

بغداد المنكوبة قبل النكبة

كان عدد سكّان العاصمة أواخر سنة (٦٥٥هـ) قد ازداد في جانب الرصافة زيادةً مهولة؛ بسبب لجوء مجاميع من سكّان القرى المحيطة بالعاصمة إليها فرارًا من الزحف المغوليّ القادم، فضلًا عن لجوء سكّان جانب الكرخ الذين عبروا بالسفن والقوارب إلى الرصافة أيضًا حين سمعوا بتقدّم الجيش المغوليّ نحو الكرخ، متصوِّرين أنّ القوات العباسيّة قادرة على حمايتهم، وأدى ذلك إلى ازدحامٍ فظيعٍ في الشوارع والأزقّة والبيوت «حتى امتلأت شوارعها، فضاقت على سِعَتِها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغَلَت الأقوات، ووقع الناس في الخوف الشديد والويل العظيم»[١]، ولذا حين انهمرت عليها قذائف المجانيق المغوليّة الصخريّة والناريّة، كانت الجثث تتكدَّس بكثافة في الشوارع والأزقّة، وبعضها يظلّ تحت أنقاض البيوت المهدَّمة ولا أحد يقوم بدفنها.

الأموات يطوِّقون الأحياء

قبل قليل من وصول هُولاكُو إلى مشارف بغداد «كان قد تفشَّى وباءٌ في المدينة بسبب ازدحام الناس فيها؛ حيث كان جميع سكّان السواد المحيطين ببغداد قد قدِموا إليها، وحدث قحط وشظف في العيش وغلاء عظيم، ومات كثيرون، وبلغ عدد الموتى من الكثرة حدًّا أنْ كان الأموات يُجهزون ويُدفنون من بيت المال بادئ الأمر، وفيما بعد ساء الوضع بحيث لم يكن أحد يغسِّل الموتى ويدفنهم بل كانوا يُلقُون بهم في الشَّط لكثرتهم، ولم يكن لدى الحَمَّالين متسع من الوقت لنقلهم. وأخيرًا أمر الخليفة بأنْ يُفرَّغ في كلِّ محلَّة خانٌ ليُلقى الأموات فيه، وحين يمتلئ يُخرجونهم، فإن أمكنت الفرصة دفنوهم»[٢].

وعقب الهزيمة المريرة التي مُني بها الجيش العباسيّ، ومحاولة قائد الجيش الدويدار الصغير الهروب بمدَّخراته وكنوزه من بغداد وفشله في ذلك[٣]، بلغ اليأس مبلغه من

(١) كتاب الحوادث: ٣٥١.

(٢) ابتداء دولة المغول: ٩٤.

(٣) ينظر جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٨، تلخيص مجمع الآداب: ابن الفُوَطِيّ: ٤/٣٦٠.

هذين القائدَين، ولذا حين أرسل إليه هُولاگُو وإلى زميله القائد الآخر سليمان شاه رسائل تطمين، قرّرا الاستسلام، ولدى وصولهما إليه في الأول من صفر أعادهما مرّة ثانية إلى المدينة ليُخرجا أتباعهما واعدًا إيّاهما أنّه سيستخدمهم جنودًا مرتزقة ينضوون تحت لواء القوات المغوليّة التي تنوي التوجُّه إلى غزو مصر والشام. وعند خروجهما «عزم جُند بغداد على الخروج معهم وكانوا خلقًا لا يُحصون مؤمِّلين أن يجدوا الخلاص؛ فقسَّموهم ألوفًا ومئاتٍ وعشراتٍ وقتلوهم جميعًا»[١]. وهؤلاء كانوا بقايا العساكر العباسيّين ومن انضمَّ إليهم من مقاتلين متطوّعين هبُّوا للدفاع عن مدينتهم؛ وقد خرج معهم عددٌ لا يُحصى من السكّان المدنيّين متصوِّرين أنّهم إنْ غادروا فسيكونون بأمان، وأنَّ بقاءهم في المدينة أسوأ لهم من مغادرتها؛ فقام المغول «بتقسيمهم على مجاميع تضمّ العشرة آلاف، أو الألف، والمئة، والعشرة، وقُتلوا جميعًا»[٢].

فـي هذا الوقت كان الخليفة قد واصل إرسال مبعوثيه إلى هُولاگُو ليتفق معه على صيغة لإيقاف القتال بعد أن أرسل موفدين «يطلبون الأمانَ له ولأبنائه وأهله،ويعتذرون له بأنّ ما جرى إنّما جرى على يد مشيرين أشرار، وأنّهم إنْ ظلُّوا على قيد الحياة أمسوا عبيدًا خاضعين يؤدُّون له الجزية»[٣]، وبعد إرساله عدّة مبعوثين لهولاكو لم تُسفر لقاءاتهم عن شيء فقرّر الاستسلام؛ فخرج في الرابع من صفر سنة (٦٥٦هـ)، وخرج من بغداد مع أبنائه الثلاثة للقاء هُولاگُو في معسكره بالمدائن (سلمان باك حاليًّا)، و«كان معه ٣٠٠٠ من السادات، والأئمّة، والقضاة، والأكابر، وأعيان المدينة»[٤].

وكما استخدم هُولاگُو القائدَين الدويدار الصغير وسليمان شاه شَرَكًا للإيقاع بأكبر عددٍ ممّن بقي من جنود الخلافة حيًّا وقتلهم، فقد استخدم هُولاگُو الخليفةَ المستعصمَ بِمصيَدَةً أيضًا؛ ليجلب له أكبر عددٍ من الجنود الذين ما يزالون في المدينة لقتلهم. فحين

(١) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٩ (الترجمة العربية)، وينظر ابتداء دولة المغول، ٩٦.

(٢) ابتداء دولة المغول: ٩٦-٩٧، وينظر جامع التواريخ: ٢ (١)/ ٢٨٩.

(٣) تاريخ الزَّمَان: ٣٠٧-٣٠٨، وينظر ابتداء دولة المغول: ٩٦.

(٤) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٠.

التقى الخليفة استعمل معه اللغة الهادئة المُطَمْئنة وكلَّمه بالكلام الطيب ثمّ قال له: «إنْ كنتَ أصبحتَ طائعًا لي، فأخرجْ جنودك لنحصيهم، وحين نرى الوقت مناسبًا سنأخذ منهم مَن نشاء»[١]. وطلب إليه أن يُصدِر أمرًا إلى من لم يزل يحمل السلاح في العاصمة بأن يضعوا أسلحتهم، ويخرجوا إلى معسكر هُولاگُو؛ لأنّه يريد إحصاءهم «فأرسل الخليفةُ مَن ينادي في المدينة ليضع الناس أسلحتَهم ويخرجوا، فألقى الناس أسلحتَهم زمرًا زمرًا، وصاروا يخرجون فكان المغول يقتلونهم»[٢].

يومَ قَتَلَ الأمواتُ الأحياءَ

ولأنّ أكداس الجثث التي امتلأت بها بغداد كان لها أثرٌ حاسم في التطوّرات التي حدثت فيها؛ سواء على مستوى بقاء سكّانها فيها أو الهروب منها، أو في مدّة مكوث الجنود المغول في شوارعها وأزقّتها وبيوتها لممارسة السلب والنهب، فقد أصبح لزامًا علينا تحديد مواقع أكداس تلك الجثث وأثرها في حركة الجنود المغول داخل المدينة، وتكمن خطورة جثث ضحايا الوباء في أنّها يمكن أن تكون نواقل للأمراض الوبائيّة كما سنرى.

أدَّت معركة المزرفة (في التاسع من المحرّم) إلى مقتل عدد كبير من أفراد الجيش العباسيّ الذين طافت جثثهم على سطح الماء المتدفِّق، بعد كسر المغول لأحد السدود على النهر الواقع خلف ميدان المعركة؛ حيث غرق مَن بقي حيًّا من أفراده في المياه المتدفّقة من ذلك البَثْق عند تراجعهم، وظلّت جثثهم هناك في الماء؛ لأنّ من نجا هرب باتجاه بلاد الشام أو مدينتَي الحلّة والكوفة[٣]، ولم يكن هناك وقت للتفكير بجثث القتلى، بل قيل: إنّ «معظم العسكر ألقوا أنفسهم في دجلّة فهلك منهم خلقٌ كثير»[٤]؛ وذُكر أنّ عدد القتلى ما بين ضابط وجندي كان «١٢٠٠٠ رجل فضلًا عمّن غرق أو قضى نحبه في الوحل»[٥].

---

(١) ابتداء دولة المغول: ٩٦.

(٢) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩١.

(٣) ينظر: جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٥-٢٨٦، ابتداء دولة المغول، ٩٣.

(٤) كتاب الحوادث: ٣٥٥.

(٥) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٥، وينظر: ابتداء دولة المغول: ٩٤، روضة أولي الألباب البناكتيّ: ٤١٧.

سنجد أنفسنا بين يدي مشهد مروِّع من أكداس مهولة للجثث في عدّة مواضع كثيرة من بغداد في داخلها وخارجها:

١. جثث ضحايا الوباء الذي ضرب المدينة، وذكرناه في ما مضى، وبلغت من الكثرة حدًّا أنْ أَمَرَ الخليفة بأن بإفراغ خان في كلِّ محلَّة تُجمع فيه الجثث انتظارًا لنقلهم ودفنهم، حيث نرجِّح أنّ الوقت لم يكن مؤاتيًا لتفريغ الجثث من تلكم الخانات، وقد طوَّقت القوات المغوليّة العاصمة، فأصبح لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه.

٢. جثث المقاتلين من أفراد الجيش العباسيّ التي تُركت عائمةً في المياه خلف ميدان معركة (المزرفة) التي قد يصل تعدادها إلى ما يزيد على ١٢ ألف، استنادًا إلى أحد المؤرّخين الذي قال: إنّ المغول «قطعوا اثني عشر ألف أُذن من آذان جيش الدويدار الَّذين كانوا قد قتلوهم وأرسلوها إلى هُولاكُو، وكان هؤلاء غير أولئك الَّذين غادروا المعركة، وسقطوا في المياه والغدران»[١].

٣. جثث آلاف القتلى من مدنيّين وعسكريّين ممّن خرجوا مع الخليفة أو قائدَيه العسكريّين الدويدار الصغير وسليمان شاه الذين خدعَهم هُولاكُو بوعوده، فذهبوا إلى معسكره في المدائن (سلمان باك حاليًا)، فقسَّمهم الجنود المغول مجاميع وذبحوهم جميعًا.

٤. جثث ضحايا قصف المجانيق بالكتل الصخريّة، أو جذوع أشجار النخيل والقارورات النفطيّة المشتعلة التي كانت تُشعل الحرائق عند سقوطها على البيوت والمحلّات في جانبي المدينة، وأدَّت إلى وفاة حشود من البشر تحت أنقاض المنازل والجدران، أو جرحهم.

٥. جثث أفراد الأسرة العباسيّة رجالًا ونساء، صغارًا وكبارًا، فقد عيَّنَ هُولاكُو أحد كبار أمرائه لإنجاز مهمّة تصفية الأسرة العباسيّة الذين كانت القصور التي هم فيها معلومة، فدخل هذا الأمير بغداد «ومعه جماعة ونائب أستاذ الدار ابن الجوزيّ، وجاؤوا إلى أعمام الخليفة وأنسابه الذين كانوا في دار الصخر ودار الشجرة، وكانوا يطلبون واحدًا

(١) ابتداء دولة المغول: ٩٤. ذكر هذا الرقم أيضًا البناكتيّ في روضة أولي الألباب: ٤١٨.

بعد واحد فيخرج بأولاده وجواريه فيُحمل إلى مقبرة الخلّال التي تجاه المنظرة فيُقتل، فقُتلوا جميعهم عن آخرهم»[١].

وتتطابق الرواية الشاميّة / المصريّة هنا مع البغداديّة بقول ابن كثير: «وكان الرجل يُستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأولاده ونسائه فيُذهب به إلى مقبرة الخلَّال تجاه المنظرة فيُذبح كما تُذبح الشاة، ويؤسَر من يختارون من بناته وجواريه»، ويقول أيضًا: «وأُسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكرٍ فيما قيل، والله أعلم»[٢].

٦. بعد نهاية المدّة الواقعة بين التاسع من صفر سنة (٦٥٦هـ) و ١٤ منه؛ وهي المدّة التي مارس الجنود المغول فيها عمليات تسليب الأهالي أموالهم ومدَّخراتهم، أرسل الأهالي ثلاثة وسطاء هم شرف الدين المراغيّ وهو سيّد علويّ، وشهاب الدين الزنجانيّ قاضي قضاة الشافعيّة عند المستعصم، وأحمد بن عمران الباجسريّ المعروف بـ(دل راست)، وكان عاملًا لدى المستعصم؛ ليطلبوا الأمان لأهل المدينة، لكن أحد هؤلاء الثلاثة، وهو شهاب الدين الزنجانيّ، استغلَّ ثقة الناس به، فقام مع رفيقٍ له هو أستاذ الفقه الحنفيّ القاضي عبد الجليل الطهرانيّ الرازيّ[٣]، بتنظيم مجزرة ذُبِحَ فيها جمعٌ من الفقهاء ممّن يختلفون معهم في الرأي، حيث كانا يسلِّمانهم إلى المغول ليقتلوهم.

يقول ابن الفُوَطِيّ الحنبليّ - وكان ببغداد آنذاك - في ترجمة القاضي عبد الجليل: «وكان شديد الوطأة على أهل العناد والفساد، وتولَّى تدريس المدرسة البشيريّة، وكان عالمًا بالفقه وأيام الناس، وهو ممّن كان يُخْرِجُ الفقهاءَ إلى باب السُّور إلى مخيَّم السلطان هُولاگُو مع شهاب الدين الزنجانيّ ليُقْتَلوا»[٤].

كان على بغداد هذه المرّة أن تشهد تكدّس جثث فقهائها أيضًا في شوارعها وأزقّتها؛

(١) كتاب الحوادث: ٣٥٨.

(٢) البداية والنهاية: ٢٣٦/١٣.

(٣) ممّا ورد في ترجمته كتاب الحوادث: ٣٩٦، أنّه فُوِّض إليه أمر الحسبة ببغداد.

(٤) تلخيص مجمع الآداب: ٣٨/٣.

بسبب وشايات هذينِ المخبرَين اللّذينِ كانا يختلفان مع الضحايا في الرأي، ممّا يعني أنّ سبب تلك الوِشايات كان طائفيًّا.

٧. جثث الضحايا الذين قتلهم المغول عند دخولهم المدينة للسلب والنهب، ففي اليوم السابع من شهر صفر سنة (٦٥٦هـ)، بدأ الجنود المغول والقوات الإسلاميّة المتحالفة معهم هجومهم على بغداد، فانتشروا في الأزقّة والبيوت، وبدأوا بارتكاب المجازر بحقّ سكّانها وسبي الأحياء نساءً ورجالًا وأطفالًا، ونهب ممتلكاتهم، وممّا فاقم الكارثة انتشار «الوباء فيمن تخلّف بعد القتل من شمِّ روائح القتلى وشرب الماء الممتزج في الجيف»[١]، وهذا تشخيص دقيق جدًّا لأسباب ظهور الوباء وهي: أ- شمّ روائح القتلى؛ ب- شرب الماء الممتزج في الجِيَف، ج- فضلًا عن وجود وباء متوطِّن فيها، كان قد ظهر - كما رأينا - عند اقتراب المغول منها.

ونذكِّر هنا بأنّ الشطر الكبير من القتلى كان في جانب الرصافة لتكدّس السكان فيه، لكن سكان جانب الكرخ لم يسلموا من القتل، فعلى الرغم من فرار أعدادٍ كبيرة من ساكنيه إلى الرصافة عند سماعهم بتقدّم الجيش المغوليّ باتجاههم، فإنّ آخرين ظلّوا هناك، فارتكب المغول بحقّهم مجزرةً كما يقول السفير الصينيّ تشانغ تيه الذي بعث به منكو قاآن سنة (٦٥٧هـ) حاملًا رسالة إلى شقيقه هُولاكُو الذي كان عائدًا من بغداد، وكتب معلوماتٍ لابدَّ أنّه سمعها من المغول هناك[٢]، ممّا يدلّ على أنّ سكّانه لم يتمكّنوا من الفرار بأَسْرِهِم، فنالهم ما نال إخوانَهم في الرصافة من قتلٍ وعذاب.

وفي هذه الحالة سيكون للجثث أثرٌ في اتساع نطاق الكارثة «حيث يمكن أن تكون ناقلةً لمسبّبات الأمراض، وليس لكونها هي السبب في الوباء. ولم تستطع البحوث العلميّة أن تربط بين وجود الجثث بعدِّها سببًا للوباء في أيٍّ من الكوارث الحديثة أو

(١) كتاب الحوادث: ٣٦٠.

(٢) سي شي كي: تشانغ تيه: ١٥٩، ١٦١، ومعنى عنوان رحلة هذا السفير هو مذكّرات رحلّة إلى الغرب. وقد نشرها إميلي برتشنايدر تامّةً في كتابه إيران وما وراء النهر، ونشر مختصرًا لها الباحث الصينيّ المعاصر باي نان رشيد وو، في كتابه سقوط بغداد: ٢٩٠.

الأحداث المصاحبة للموت الجماعيّ. وتُسبب الكوليرا قلقًا خاصًّا؛ حيث إنّ جراثيمها يمكن أن تتسبّب في إحداث تأثيرٍ تدميريّ. إنَّ تزامن حدوث فصل الإصابة بالكوليرا في المناطق المتوطّنة مع الكوارث المصحوبة بالموت الجماعيّ كانت موضع عنايةٍ كبيرة لأكثر من مسؤول في صحة المجتمع. إنّ الازدحام الكبير مع ضعف إجراءات النظافة، وتدهور نُظُم مياه الشرب يمكن أن يزيد من انتشار المرض على نحو هائل، وفي مثل هذه الحالات يمكن أن تلعب الجثث عملًا بارزًا في زيادة معدّل الإصابة بالعدوى؛ خصوصًا عندما تتماس الجثث المتفسخة مع مصادر الماء»[١]. هذا فضلًا عن أن الجثث «وبعد عدة أيام من التحلُّل، هناك احتمال تشكُّلِ غازاتٍ سامَّة خطِرة»[٢]ستنبعث منها.

وهناك خطر بارز آخر، وهو تحوّل الجثث إلى موطن لنواقل المرض، ففي وثيقة نُشرت سنة (٢٠٠٠)، أثبتت منظمة الصحّة العالميّة أنّ «الجثث السليمة والمتفسّخة لا تشكِّل خطرًا جدِّيًّا على الصحّة إلَّا إذا سبَّبت تلوُّثًا في مصادر مياه الشرب عن طريق الغائط، أو إذا كانت مصابة بالطاعون أو التيفوس، حيث إنّها من المحتمل أن تصبح موطنًا للبراغيث والقمل، وهما السبب في انتشار هذين المرضين»[٣].

وخلصت الدراسة إلى القول: «إنّ الجثث هي المضيف (الثَّوِيّ) للأمراض المتوطِّنة الموجودة في المنطقة، وإنّ الجراثيم يمكن لها أن تعيش في الجثّة بعد موت المضيف، وكذلك وجود الظروف العامّة الضروريّة: مثلًا تدهور البنى التحتيّة المسؤولة عن التخلّص من النفايات، الازدحام...، إلى آخره»[٤]، ونعتقد أنّ ما فاقم الإصابات بالوباء، التماسُّ المباشر بين الناجين من المواطنين والجثث بعد صدور أمر هُولاكُو لجنوده بالتوقّف عن القتل والسلب، حيث «بادر كلّ شخصٍ إلى دفن قتلاه وطهرت الطرق من جثث

(١) مجموعة خبراء في الطبّ الشرعيّ والأمراض المعدية والتعامل مع الكوارث، التعامل مع جثث الموتى في حالة الكوارث: ٧٧.

(٢) إدارة الجثث بعد وقوع الكوارث: ٦.

(٣) التعامل مع جثث الموتى في حالة الكوارث: ٨١.

(٤) التعامل مع جثث الموتى في حالة الكوارث: ٨٥.

الحيوانات النافقة، وعمرت الأسواق»[١].

شهداءُ بينَ الطَّعْنِ والطَّاعونِ[٢]

استنادًا إلى أحد المؤرّخين البغاددة «قيل إنّ عِدَّة القتلى ببغداد زادت عن ٨٠٠٠٠٠ نفس، عدا من أُلقي من الأطفال في الوحول، ومن هلك في القنيّ والآبار وسراديب الموتى جوعًا وخوفًا. ووقع الوباء فيمن تخلّف بعد القتل من شمِّ روائح القتلى وشرب الماء الممتزج في الجِيَف. وكان الناس يكثرون من شَمِّ البصل لقوَّة الجيفة وكثرة الذباب؛ فإنّه ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها»[٣].

وكما يقول مؤرّخ بغداديّ آخر فإنّ هُولاكُو نفسه لم يُطِق البقاء في المدينة حيث دخلها في التاسع من صفر بصحبة الخليفة لمشاهدة قصره واستخراج كنوزه ومدَّخراته، ثمّ غادرها في الرابع عشر من صفر «بسبب عفونة الهواء»[٤]، وكان هُولاكُو مبتلىً بمرض الصَّرع[٥]؛ لذا كان يصحب معه جمعًا من الأطباء يشرفون على صحته، ومنهم طبيب صينيّ استمرّ في العناية بصحته حتى وفاته[٦]. ويقول مؤرّخ معاصر للوقائع عن أحوال هُولاكُو وجنوده العائدين من بغداد: «كانت حرارة الجوّ قد ازدادت، وروائح التعفُّن تزكم الأُنوف، وتفشَّى الوباء، ومَرِضَ أغلبُ الجنود المغول، ومات الكثير منهم، فغادروا إلى بلاد سياه كوه وهمذان. وفي اليوم العشرين مَرِضَ هُولاكُو، ثُمَّ شُفي»[٧].

---

(١) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٣، ٢٩٥.

(٢) اقتبسنا هذا العنوان من عجز بيت الشاعر أبي المعافى المَعَرِّيّ يصف محنة أهل مدينة شيزر السوريّة لكونها موطنًا للوباء مع استيلاء العدوَ الإفرنجيّ عليها، وصدرُه: وَبِئتْ وجاوَرَها العدوُّ فأهلُها. (خريدة القصر: الإصفهانيّ: ٣٩٢/٢)

(٣) كتاب الحوادث: ٣٦٠.

(٤) ينظرجامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٥.

(٥) ينظر: ابتداء دولة المغول: ١١٢، صحائف الأخبار: منجم باشي: ٣٩٨/٢.

(٦) ينظر عصر المغول لاين: ٢٠٧.

(٧) ابتداء دولة المغول: ١٠٠.

الوباء العامّ في بغداد والمنطقة

إذن، يمكن القول إنّ تفسُّخ الجثث في المدينة واختلاط أجزائها بالمياه التي لابدَّ أن يشرب الأهالي منها، أدَّيا إلى ظهور أوبئة، يقول المؤرّخ ابن العبريّ الذي كان في المنطقة آنذاك: «وحدث يومئذٍ جوع شديد ووباء قتّال في أطراف بغداد، وآثور، وما بين النهرين، وسورية، وبلاد الروم»[١]. أي إنّ الوباء شمل الموصل وما حولها وتركيا الحالية وبلاد الشام، كما شمل مصر وكان أحد ضحاياه الشاعر الرقيق البهاء زهير «لمَّا عرضَ بالبلاد الوباء العام عُقيب أخذ التتر بغداد»[٢]. ومكث الوباء في المنطقة طويلاً؛ إذ نجده سنة (٦٥٨هـ) في بلدة ماردين التابعة لبلاد الجزيرة وديار ربيعة[٣]. ويربط تقرير شامل بين الوباء في بغداد وظهوره في البلاد المجاورة، فيقول: «وفي هذه السنة (٦٥٦هـ) اشتدَّ الوباء بالشام، ومات خلق كثير بحيث خرج من حلب في يوم واحد ١٢٠٠ جنازة، وكان في دمشق من المرضى ما لا يُحَدّ ولا يوصَف، استغنى العطَّارون، ونَفِدت الأدوية، وعزَّ الأطبّاء إلى الغاية...، وابتدأ الوباء في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وذلك لفساد الهواء بملحمة بغداد»[٤].

تسليب الممتلكات أو المكتبات

إنَّ ظهور الوباء في بغداد وارتفاع روائح الجثث المتفسّخة جعل من الصعب على الغزاة المغول أن يطيلوا مدّة المكوث فيها؛ لتسليب المدنيّين من ممتلكاتهم ومدَّخراتهم، مع محدوديّة المدّة المقرّرة لكلّ قائد مغوليّ وجنوده ليمكثوا في المدينة. يقول الموسيقار صفيّ الدين الأرمويّ الذي كان في بغداد آنذاك: «إنّ هُولاكُو طلب رؤساء البلد وعرفاءه، وطلب منهم أن يقسِّموا دروب بغداد ومحالها وبيوت ذوي يسارها على أمراء دولته فقسَّموها، وجعلوا كلّ محلّةٍ أو محلّتين أو سوقين باسم أمير كبير؛ فوقع الدرب الذي

(١) تاريخ الزمان: ٣٠٩.

(٢) مفرج الكروب: ابن واصل: ٢٢٠/٦، وينظر ذيل مرآة الزمان: اليونينيّ: ١٩٧/١، ٢٢٤.

(٣) ينظر تاريخ مختصر الدول: ٤٨٨، تاريخ الزمان: ٣١٧.

(٤) العسجد المسبوك: الأشرف الغساني: ٦٤٥.

كنت أسكنه في حصة أمير مقدّم على عشرة آلاف فارس اسمه (باتو نوين)، وكان هُولاگُو قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدّة ثلاثة أيام، ولبعضهم يومين، ولبعضهم يومًا واحدًا على حسب طبقاتهم»[١]، والأوامر صارمة بهذا الشأن، ذلك أنّ «عقوبة الإعدام تشمل أيّ جنديّ يفرّ من ساحة المعركة قبل إصدار الأوامر بالانسحاب الرسميّ، وكذلك من يبدأ بالسلب قبل إصدار الأوامر الرسميّة بذلك»[٢].

لذا كان الضباط المغول وجنودهم في عجلة من أمرهم لإتمام عملية تسليب ضحاياهم؛ سكان بغداد الذين ذاعت شهرتهم في البلدان بالترف والنعيم وكثرة الأموال والتجارات، وهم لن يتركوا الثروات ونفائس الأمـوال، لينشغلوا بعملية البحث عن المكتبات التي تغصُّ بها بغداد ودخولها واحدةً واحدةً وإخراج كتبها وتحميلها على عربات والذهاب بها إلى نهر دجلة، حيث سيكون هناك بانتظارهم جنود آخرون ينزلون إلى المياه الجارية ليرصفوا الكتب بصورة هندسيّة دقيقة؛ لتشكل جسرًا يتمكّن الجنود المغول من العبور عليه بين جانبي المدينة، ثمّ يعودون أدراجهم ليحملوا أكداسًا أُخر من الكتب، وينقلونها إلى دجلة، وهكذا في عملٍ عابث لا نفع من ورائه.

هذا مع اشتداد ارتفاع روائح جثث القتلى والموتى في المدينة، ثمّ إنّ المغول ما كانوا محتاجين للجسور؛ لأنّ جسور بغداد كانت ما تزال قائمة، وإن جيش هُولاگُو كانت لديه القدرة التامّة على إقامة الجسور، فعند تقدّمه إلى بلاد الجزيرة أقام في آن واحد ثلاثة جسور على الفرات، فعبرت عليها حشود جيوشه لتتوجه من هناك نحو حلب[٣]، بفضل وجود مهندسين صينيين معهم عُرفوا بمهارتهم في بناء الجسور المعلّقة بسلاسل من الحديد المطاوع[٤]. بل حدث في ما بعد أنْ أمرَ الحاكم المغوليّ للعراق علاء الدين الجوينيّ سنة (٦٧٩هـ) بعمل جسر وحَمْله إلى مدينة تُسْتَر (أحدى مدن خوزستان)

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ابن فضل الله العمريّ: ٣٥٣/١٠.

(٢) عصر المغول، ١٥٤.

(٣) ينظر كتاب الحوادث: ٣٧٠.

(٤) ينظر موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين: نيدهام: ١٣٢.

«مكمَّلًا بسلاسله وآلاته»[١]؛ وعليه لا حاجة لعملية مستحيلة التحقّق برصف الكتب في قاع نهر دجلة المتدفِّق؛ حيث ستجرفها المياه أوّلًا بأوّل.

عاصمة المكتبات والمعرفة

كانت بغداد آنذاك المدينة الأولى في العالم بكثرة مكتباتها العامّة والخاصّة، وكان يُضرب بها المثل في أعداد كتبها الهائلة التي احتوتها، ومن الطبيعيّ أن يصيب مكتبات بغداد خلال الهجوم المغوليّ المدمّر ما أصاب سائر أجزاء المدينة من خراب، كان المسبب الأول فيه الحرائق التي اجتاحت المدينة؛ لاستخدام المغول القذائف المشتعلة المعبَّأة بالنفط. لكن المغول منذ انطلاقهم في الموجة الأولى لغزوهم العالم الإسلاميّ التي قادها جنكيز خان كان ديدنهم ضبّاطًا وجنودًا بعد تحقيقهم الانتصار العسكريّ أن يندفعوا لتحقيق المكاسب الماديّة الشخصيّة، وجمع أقصى ما يستطيعونه من أموال الضحايا ومدَّخراتهم في المدن التي يدخلونها.

يقول ابن الأثير مثلًا عن دخولهم سمرقند سنة (٦١٧): «وافتضوا الأبكار، وعذَّبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا مَن لم يصلح للسبي»[٢]، ويقول عن دخولهم مدينة نيسابور سنة (٦١٨هـ) أيضًا: «فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء، فقتلوهم، وسبوا حريمهم، وعاقبوا من اتّهموه بمالٍ كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يومًا يخرّبون ويفتّشون المنازل عن الأموال»[٣].

كانوا يتدفَّقون في أزقّة المدينة وبيوتها «تدفُّق النمل والجراد من كلّ جهة وناحية»[٤]، ويبدأون بالسؤال أولاً عن أصحاب الثروات في الأحياء، وبعض تلك الدروب والأزقّة كان أهلها معروفين بالثراء، ومن ذلك مثلًا درب الزعفران بالكرخ الذي كان يسكنه التجّار

(١) كتاب الحوادث: ٤٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣٦٨/١٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣٩٣/١٢.

(٤) على حدّ تعبير المؤرّخ المغوليّ رشيد الدين في جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٦.

وأرباب الأموال[١]، وقد يضطرّ الناس لخوفهم منهم إلى أن يدلّوهم على أحد البيوت، أو أنّ المغول أنفسهم يرون في مظهر بيتٍ ما يدلّ على الغِنى مثل القصور المحيطة بقصور دار الخلافة؛ عندها يدخلون البيت فيحتجزون أهله صغارًا وكبارًا فيه، ثمّ يبدأون السؤال بواسطة مترجم إن كان معهم أو بالإشارة، وقد يبادرون إلى ربط ربّ الأسرة أو أيّ شخصٍ بحبل أو قيد، ويبدأون بتعذيبه بمرأى من عياله، فإن أحضر شيئًا طالبوه بالمزيد. وقد يموت المسكين بعد أن يعجز عن إثبات أنّه لم يعدْ يملك شيئًا غير ما قدَّمه لهم، وخلال ذلك يمكن أن يقوم الضابط المغوليّ أو جنوده باغتصاب مَن يشاؤون مِن النساء في المنزل، وقد يبادر صاحب المنزل لمقاومتهم دفاعًا عن نسائه وبناته حتى يُقتَل[٢]، وقد يقتلون المرأة نفسها، أو أيّ شخص آخر في المنزل أو يأخذونهم أسرى لبيعهم عبيدًا، وكانوا يأخذون الأُسارى «مُشاة على أقبح صورة، وكلُّ مَن أعيا وعجز عن المشي قتلوه»[٣] في أيّ مرحلةٍ من مراحل رحلتهم التي قد تستغرق المسافات الهائلة؛ وهذا هو معنى استباحة المدينة.

نعم، لو قيل لأيّ ضابط أو جندي مغوليّ: إنّه يوجد في هذه المكتبة أو بين ثنايا هذه الكتب ذهبٌ أو مقتنياتٌ ثمينة لما تردَّد في مهاجمتها وتمزيقها أو إحراقها من أجل الحصول على غنيمته؛ كان أولئك الجنود بهائم لا يفقهون شيئًا سوى القتال، والنهب، والإغارة، وإطاعة أوامر ضباطهم وملوكهم، ولقد انهمكوا بتعذيب الناس ممّن يشكُّون فيهم أنّهم يخبّئون شيئًا من أموالهم ومدَّخراتهم قبل انقضاء المدّة المقرّرة لهم، ولم يكن في المكتبات ما يُغري أولئك الذين ينشدون الذهب والفضة. ويمكن أن يكونوا قد أحرقوا مكتبات في بغداد كما يفعل أي جنود غزاة حين يكون بعضهم حاملًا مشعلًا بيده وهو على فرسه، فيحرق به ما يصادفه من بيوت وممتلكات ومكتبات، ومن ذلك إحراقهم مكتبة مدينة (ساوة) التي يقول ياقوت عن هجومهم عليها سنة (٦١٧هـ): «فجاءها التترُ الكفارُ التُّرْكُ فخبِّرتُ أنّهم خرَّبوها، وقتلوا كلّ من فيها، ولم يتركوا أحدًا البتة، وكان بها

(١) ينظر مراصد الاطّلاع: ٥٢١/٢.

(٢) ينظر البداية والنهاية: ٩٩/١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٢٢٥/٨.

دارُ كتبٍ لم يكن في الدنيا أعظم منها، بلغني أنّهم أحرقوها»[١].

ولنأخذ مثالًا على طمع المغول وجشعهم في التسليب؛ فقد أغاروا على قبور الخلفاء العباسيّين في مقبرتهم التي بالرصافة و«نُبشت قبور الخلفاء وأُحرقت تلك الأماكن، وأُبرزت العظام والرؤوس»[٢]، ونعتقد أنّ التفسير الوحيد لهذا العمل هو: بما أنّ تلك المقابر لم تكن مقابر عاديّة، إذ كانت آيةً في الفنّ العِماريّ تُلفت الأنظار إلى فخامتها، ووجود غُرفٍ كثيرة خُصّصت لاستراحة كبار الشخصيات والوزراء من زائريها، وفيها زخارف تُبهر الأبصار، وعُلِّقت فيها قناديل كثيرة من الذهب والفضّة، وعليها ستور الديباج والحرير، تفوح منها دومًا روائح العطور؛ لوجود خدم وموظفين يقومون على خدمتها[٣]، فقد دعا ذلك المغول إلى اقتحامها؛ ويقينًا أنّهم سلبوا ما فيها من قناديل ذهب وفضّة وزينة وفُرُش، وبدأوا بنبش المقابر لاعتقادهم-كما نرى-أنّها تضمّ أيضًا تحفًا أو كنوزًا تُدفن مع الميت أو أنَّ أحدًا من الأحياء وجد فيها مكانًا آمنًا لكنوزه.

شهادة الموسيقار الحزين

هذه شهادة فريدة لم نجد في كتب التاريخ سواها لشاهد عيانٍ على الطريقة التي تصرَّف بها الضبّاط المغول وجنودهم مع أهل بغداد خلال اجتياحهم البيوت والضغط على سكانها لتقديم ما لديهم من الأموال والمدَّخرات، رواها أحد سكان بغداد الأثرياء؛ وهو الموسيقار صفيّ الدين الأرمويّ (حوالي ٦١٣-٦٩٣هـ)، وكان قد قَدِمَ إلى بغداد أيام شبابه وعُيِّن أستاذًا للفقه الشافعيّ في المدرسة المستنصريّة، لكنّه واصل انهماكه في هواياته الأخرى وهي دراسة الأدب والعربيّة وتجويد الخطّ، فأتقنه وعُرف بجمال خطّه، ثمّ واصل تدرّبه على آلة العود والتلحين حتى برع فيه براعةً فائقة[٤]، وأصبح من كبار

(١) معجم البلدان: ٢٤/٣.

(٢) كتاب الحوادث: ٣٦٤.

(٣) ينظر تفاصيل وافية عن هذه القبور في كتاب المقابر والمشاهد: ١١٥ وما بعدها.

(٤) عن هذه المعلومات الخاصّة بحياة الأرمويّ، ينظر: الوافي بالوفيات: ١٦١/١٩، فوات الوفيات: ابن شاكر: ٤١٢/٢.

الملحنين وأستاذًا يدرِّس الموسيقى لبعض الطلاب[١]، وله في ذلك مؤلّفات.

وحين شيّد المستعصم خِزانتي الكتب اللّتين ذكرناهما، سلَّم مفاتيح إحداهما للأرمويّ هذا[٢]. وقد أصبح له إبداعات وابتكارات في فنّ الموسيقى، ومؤلّفات ذاعت شهرتها إلى يومنا حتى قيل إنّه «من أعظم وأشهر الموسيقيّين في تاريخ العرب»[٣]، وعُدَّ واحدًا من أهم المنظِّرين المسلمين في الموسيقى[٤]. وممّا له علاقة بما نحن فيه، قصة اكتشاف المستعصم لموهبته في التلحين والعزف على العود، وقد قيل عن المستعصم: إنّه «كان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والتفرُّج على المساخرة»[٥]، وهو الأمر الذي عابه عليه قادةُ جُنده؛ مثل: الدويدار الصغير وغيره بقولهم: «إنّه صديق المطربين والمساخرة، وعدوّ الجيوش والجنود»[٦]. يقول الأرمويّ: «ولم يعلم الخليفة أنّني أُحسن الضرب بالعود، وكان ببغداد مغنيّة تُعرف بـ(لحاظ) فائقة الجمال تغنّي جيدًا، فأحبَّها الخليفة وأجزل لها العطاء، فكثر خدَّامها، وجواريها، وأملاكها، فاتَّفق أن غنَّت يومًا بين يديه بلحن طيِّب غريب، فسألها عن ذلك، فقالت: هذا لصفيّ الدين المُجَوِّد[٧]. فقال: علَّي به. فأُحضِرت، وضربتُ بين يديه بالعود فأعجبه ذلك، وأمرني بملازمة مجلسه، ورَسَمَ لي برزق وافر جزيل غير ما كان يُنعم به عليَّ، وصرت أُسفِر بين يديه وأقضي للناس عنده حوائج كثيرة، وكان لي مرتَّب في الديوان كلَّ سنة خمسة آلاف دينار يكون عنها دراهم مبلغ ستين ألف درهم[٨]، وأُحصِّل في قضاء أشغال الناس مثلَها وأكثر»[٩]، ثمّ أصبح من المقرَّبين لدى المستعصم

(١) ينظر تلخيص مجمع الآداب: ٦٢/٣.

(٢) الفخريّ: ٣٣٣، الوافي بالوفيات: ١٦١/١٩.

(٣) تاريخ الموسيقى العربيّة: فارمر: ٢٦٨، عن بعض إبداعاته الفريدة بهذا الشأن، ينظر موسوعة تاريخ العلوم العربيّة: ٧٨٠/٢.

(٤) ينظر تاريخ العلوم العامّ، العلم القديم والوسيط تاتون: ٤٩٥.

(٥) الفخريّ: ٣٣٣.

(٦) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٧٣-٢٧٤.

(٧) في فوات الوفيات: ٤١٢/٢: «فقالت: هذا لمعلِّمي صفي الدين».

(٨) أي: أنّ الخمسة آلاف دينار تُعادل في التصريف ٦٠ ألف درهم.

(٩) الوافي بالوفيات: ١٦١/١٩، فوات الوفيات: ٤١٢/٢.

ومن خواصِّه[١]. وعُرف عنه أنّه «كان يُنفق أمواله على الملاذّ، ويبالغ في عمل الحضرات البديعة التصفيف وكان يكون ثمن المشموم أربع مئة، والفاكهة أربع مئة درهم، وكان يتنعّم كثيرًا»[٢].

رواية فريدة

الرواية الآتية هي تجربة شخصيّة فريدة للأرمويّ مع المغول، نقلها عنه الفيلسوف والطبيب والمؤرّخ عزّ الدين الإربِلّيّ[٣]، الذي التقاه في المدرسة المستنصريّة ببغداد بعد واقعة الغزو المغوليّ وتذاكرا ما جرى فيها، فقال الأرمويّ: إنّ هُولاگُو أصدر أمره لكبار قادة جيشه بدخول المدينة، وحدَّد لكلّ واحدٍ منهم المدّة التي يقضيها في المدينة، فبعضهم منحه ثلاثة أيام لـ «يقتل ويأسر وينهب»، وآخر يومين وآخر يومًا واحدًا. وهذا يعني أن يستبيحوا المدينة وأن يفعلوا أيّ شيءٍ يروق لهم، وفي مقدّمة ذلك سلب الأهالي أموالهم ومدَّخراتهم.

يكمل الأرمويّ قائلًا: «فلمّا دخل الأمراء إلى بغداد كان أوّل دَرْبٍ[٤] جاء إليه الأميرُ الدَّرْبَ الذي أنا ساكنُه، وقد اجتمع إليه خلق كثير من ذوي اليسار، واجتمع عندي نحو خمسين جاريةٍ من أعيان المغاني من ذوي المال والجمال فوقف باتو نوين[٥] على باب الدرب وهو مُتَرْبَس[٦] بالأخشاب والتراب، فطرقوا الباب وقالوا: افتحوا لنا وادخلوا في

(١) الفخريّ: ٣٣٣.

(٢) الوافي بالوفيات: ١٦٢/١٩.

(٣) نصّ هذه الرواية ذكره ابن فضل الله العمريّ في مسالك الأبصار: ٣٥٣/١٠، وما بعدها، ونقلها منه ابن حِجَّة الحمويّ في ثمرات الأوراق، ٣٠٣.

(٤) الدرب: الزقاق.

(٥) في الأصل في جميع أجزاء هذه الرواية: نانو نوين، وورد بهذه الصيغة في ثمرات الأوراق أيضاً، ونعتقد أن الصواب هو باتو نوين، وهو أحد كبار القادة العسكريين لدى هولاكو. ونوين أو نويان تعني الأمير بالمغولية.

(٦) أي مغلق بالترباس، وهو خشبة طويلة تُقفل بها الباب من داخل البيت فيمنع مَن يريد فتحه عنوة من الخارج.

الطاعة، ولكم الأمان وإلَّا أحرقنا الباب وقتلناكم، ومعه الزرَّاقون (وسنعرِّف بهم لاحقًا) والنجَّارون وأصحابه بالسلاح». والواضح أنّه إنّما جاء بالنجّارين معه لكسر أبواب الدروب التي كان لها أبواب في بغداد وعليها حرَّاس[١]، ويقينًا أنّ الحراس كانوا قد هربوا، فلكلّ امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه.

يقول الأرمويّ الذي قرّر الاستجابة لطلب ذلك الأمير المغوليّ والخروج إليه: «ففتحت الباب، وخرجتُ وحدي عليَّ أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت، فقبَّلت الأرض بين يديه. فقال للترجمان: قلْ له مَن أنت؟ [هل أنتَ] كبير هذا الدرب؟ فقلت: نعم. فقال: إنْ أردتم السلامة من الموت فأحملوا لنا كذا وكذا، وطلبَ شيئًا كثيرًا.

فقبَّلتُ الأرض مرةً ثانية، وقلت: كلّ ما طلبَ الأمير يحضر، وصار كلّ مَن في هذا الدرب بحكمك. فَمُرْ جيوشك ينهبون باقي الدروب المعْنِيَّة، وانزلْ حتى أُضيِّفك ومَن تريد من خواصِّك، فأجمعُ لك كلّ ما طلبت. فشاور أصحابه، ونزل في نحو ثلاثين رجلًا».

الرقْص مع الذئاب

بغية سلامة نفسه ومن معه، لم يدَّخر الأرموي وِسعًا في القيام بأيّ عملٍ يحقّق ذلك الهدف مستفيدًا من الثراء العريض الذي وفَّره له عملُه مع الخليفة، ها هو يتابع القول: «فأتيتُ به داري وفرشت له الفرش الخليفيّة الفاخرة والسُّتور المطرّزة بالزركش وأحضرت له في الحال أطعمة قلايا، وشوايا، وحلوى، وأكلتُ بين يديه شَشْني[٢].

فلما فرغ من الأكل عملت له مجلسًا ملوكيًّا، وأحضرت الأواني المذهّبة من الزجاج الحلبيّ وأواني فضّة فيها شراب مروَّق. فلما دارت الأقداح، وسكر قليلًا أحضرت عشر جُوَق[٣]

(١) ينظر: نشوار المحاضرة: التنوخي: ٣٤١/١، المنتظم: ٢٣٠/١٨، سير أعلام النبلاء: ٤٨٦/١٨.

(٢) ششني: القليل من الطعام أو الشراب الذي يُؤخذ على سبيل التذوّق أو التجربة، وكذلك هو الطعام الذي يُتعللَّ به قبل الغداء ويقال له اللُّهْنَة أو السُّلْفة، وأصل الكلمة فارسيّ هو چاشني (ينظر: مقدّمة الأدب: الزمخشريّ: ٣٤١/١، ٢٥٣، فرهنگ فارسي: معين).

(٣) جوق: جمع جوقة وهي المجموعة من الناس، وما زالت موجودة في العاميّة العراقيّة المعاصرة بلفظ (جوگة). واستعملت هنا بمعنى المجموعة من المنشدين (فرقة إنشاد)، أو المغنّين أو العازفين الموسيقيّين، أو من يجمع بين العزف والغناء، وهي تعني هنا المجموعة المؤلَّفة من

مغاني كلُّهم نساء، كل جوقة تغني بملهاة غير ملهاة الأخرى. وأمرتهم فغنُّوا كلُّهم على شأن واحد، فارتجَّ المجلس، وطرب وانبسطت نفسه، فضمَّ واحدة من المغنيات أعجبته؛ وتمَّ يومُه في غاية الطيبة».

لنتوقف ونسأل: هل كان بمقدور الأرمويّ أن يمنع القائد المغوليّ من اغتصاب إحدى جواريه المغنّيات في المجلس؟ ولو أراد الجنود الذين معه أن يفعلوا ما يشاؤون بجميع سكّان البيت فهل من رادعٍ يردعهم؟ ولو أرادوا ذبحهم فهل من مدافع عنهم؟.

هذه هي الكارثة التي أوقع فيها الخليفة والقادة العسكريّون مواطني بغداد وبقية مدن العراق فيها بغفلتهم وانهماكهم باللهو والطرب والاحتفالات ومسابقات الطيور والعيش في أوهام القوة الزائفة، أو بتعمّدهم تخفيض أعداد الجنود[١]، أو قبولهم بذلك، أو بفسادهم بانتشار الرشوة واللصوصيّة في صفوفهم.

يقول ابن العبريّ: إنّ المستعصم «كان إذا نُبِّهَ على ما ينبغي أن يفعله في أمر التتار: إمَّا المداراة والدخول في طاعتهم وتوخِّي مرضاتهم، أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبلَ تمكُّنهم واستيلائهم على العراق، فكان يقول: أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نَزَلْتُ لهم عن باقي البلاد، ولا أيضًا يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي»[٢]. ونقل أيضًا عنه قوله: «إنَّ بغداد هي تَخْتُنَا، ولن يدخلوها ما لم نأذَنْ لهم»[٣]. وكانت عواقب بُخله وغفلته وأوهام القوّة لديه مأساة على البلاد والعباد أدمت القلوب والعيون. وقد وصفه القائد سليمان شاه بين يدي هُولاگُو بأنّه «كان مستبدًّا برأيه، منكود الطالع، فلم يستمع لنصح الناصحين»[٤]. حقًّا إنّه «لم يكن بصيرًا بتدبير المُلْك»[٥].

خمسة أفراد حصرًا، يدلّ عليه قوله: «واجتمع عندي نحو ٥٠ جارية من أعيان المغاني».

(١) ينظر مختصر التاريخ: ٢٧٠.

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٤٤٥- ٤٤٦.

(٣) تاريخ الزمان: ٢٨٨-٢٨٩. التَّخْت: فارسية وتعني العاصمة.

(٤) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٠.

(٥) كما وصفه الأشرف الغسانيّ في العسجد المسبوك، ٦٣٢.

كان سخيًّا مع المطربين والملحّنين والمغنّيات والجواري؛ انظروا إلى الموسيقيّ الأرمويّ الذي أُعجب به الخليفة لمهارته الموسيقيّة، فنال حظوة لديه، كيف جمع ثروته الهائلة التي قال عنها: إنّها «نِعَمٌ موفَّرةٌ، كانت عندي من صدقات الخليفة»، وممّا كان يقدّمه له الناس لقاء توسّطه لدى الخليفة وغيره في قضاء حوائجهم[١]؟ هذه الثروة التي أنقذته عندما داهم الجنود المغول قصره، الثروة التي جعلت في قصره من المغنّيات خمسين مغنّية وقت المداهمة؛ تُرى كم هو عدد سكّان القصر من أهله، ومن الخدم، والجواري، والطبّاخين؟

ولما كان جيرانه سكّان الحيّ الراقي أثرياء مثله، فقد أنقذتهم ثرواتهم أيضًا حين جمعوا المبالغ والحليّ التي قدَّموها للغزاة، فسلموا من القتل وسبي النساء والذرّيَّة وبيعهم في أقاصي الأرض عبيدًا، بل إنّ الأرمويّ طلب إلى الأمير المغوليّ أن يرسل مَن معه من العساكر لينهبوا بقية الدروب التي يحددها لهم، في حين ينزل هو ضيفًا عنده ليأكل ويشرب ويشنِّف آذانه بالغناء والموسيقى، وكأن مَن في بقية الدروب ليسوا أبناء جلدته أو مدينته، وقد فَعَلَ الجنود ذلك كما سنرى.

يتابع الأرمويّ: «فلمّا كان وقت العصر حضر أصحابُه بالنهب والسبايا، قدَّمتُ له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفًا جليلة من أواني الذهب والفضة، ومن النقد والذهب ومن الأقمشة الفاخرة شيئًا كثيرًا سوى العَلِيق[٢]، ووهبت له الغواني الذين كانوا بين يديه واعتذرتُ من التقصير، وقلتُ: جاء الأمير على غفلة، لكنْ غدًا إن شاء الله أعمل للأمير دعوةً أحسن من هذه، فركب وقبَّلتُ ركابه.

ورجعتُ فجمعتُ أهلَ الدرب من ذوي النعمة واليسار، وقلت لهم: انظروا لأنفسكم، هذا الرجل غدًا عندي وكذا بعد غد، وكلّ يوم أُريد أضعافَ اليومِ المتقدِّم، فجمعوا لي من بينهم ما يساوي خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح.

(١) مسالك الأبصار: ٣٥٣/١٠، وينظر: الوافي بالوفيات: ١٦١/١٩، فوات الوفيات: ٤١٢/٢.

(٢) العليق: علف الدوابّ.

فما طلعت الشمس إلّا وقد وافاني فرأى ما أذهله وجاء في هذا اليوم ومعه نساؤه، فقدَّمتُ له ولنسائه من الذخائر والذهب النقد ما قيمته عشرون ألف دينار.

وقدّمت له في اليوم الثالث لآلئ نفيسة، وجواهر ثمينة، وبغلةً جليلة بآلات خليفيّة، وقلت: هذه [من] مراكب الخليفة؛ وقدَّمت [هدايا] لجميع مَن معه، وقلت: هذا الدرب قد صار بحكمك فإن تصدَّقتَ على أهله بأرواحهم فيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس، فما بقي عندهم سوى أرواحهم.

فقال قد عرفتُ ذلك، ومن أول يوم وهَبْتُهم أرواحَهم وما حدَّثتني نفسي بقتلهم ولا سبيهم، لكنْ أنت تجهَّزْ معي قبلَ كلّ شيء إلى حضرة القاآن، فقد ذكرتُك له وقدَّمتُ له شيئًا من المستطرَفات التي قدَّمتَها لي فأعجبته ورَسَمَ بحضورك.

فخِفتُ على نفسي وعلى أهل الدرب وقلت [في نفسي] هذا يُخرجني إلى خارج بغداد ويقتلني وينهب الدرب، فظهر عليَّ الخوف وقلت: يا خوند[1]، هُولاگُو ملك كبير وأنا رجل حقير مغنٍّ أخشى منه ومن هيبته.

فقال: لا تَخَفْ، ما يُصيبك إلّا الخير فإنّه رجل يحبّ أهل الفضائل.

فقلت: أنا في ضمانك أنّه لا يُصيبني مكروه؟ قال: نعم.

فقلت لأهل الدرب ما عندكم من النفائس؟ فأَتَوني بكلّ ما يقدرون عليه، فأخذت معي من المقتنيات[2] الجليلة ومن النقد الكثير من الذهب والفضّة، وهيَّأت مآكلَ كثيرة طيبة وشرابًا كثيرًا عتيقًا فائقًا وأواني فاخرة كلّها من الفضّة المنقوشة، وأخذتُ معي ثلاث جُوَق مغاني[3] من أَجمل من كان عندي وأتقنهنَّ للضرب، ولبست بدلة من القماش الخليفيّ، وركبت بغلةً جليلة كنت أركبها إذا رحت إلى الخليفة.

فلما رآني باتو نوين بهذه الحالة قال لي: أنت وزير؟

---

(١) خوند: الأمير، أو المخدوم.

(٢) في الأصل: من المغنيات، والصواب ما أثبتناه.

(٣) الجوقة الواحدة تضمّ خمسًا ما بين مغنّية وعازفة.

قلتُ: بل أنا مغني الخليفة ونديمه، لكن لمّا خِفت منك لبستُ الثوبَ المقطَّع الوسخ، ولما صرتُ من رعيتك أظهرتُ نعمتي وأمِنتُ، وهذا الملك هُولاگُو ملك عظيم، وهو أعظم من الخليفة فما ينبغي أن أدخل عليه إلَّا بالحشمة والوقار .

فأعجبه منّي هذا، وخرجت معه إلى مخيّم هُولاگُو، فدخل عليه وأدخلني معه، وقال لهولاكو: هذا الرجل الذي ذكرتُه [لك]، وأشار إليَّ، فلما وقعت عين هُولاگُو عليَّ قبَّلتُ الأرض وجلست على ركبتيّ كما هو من عادة التتار.

فقال باتو نوين: هذا كان مغني الخليفة وقد فعل معي كذا وكذا، وقد أتاك بهدية، فقال: أَقيموه فأقاموني. فقبَّلتُ الأرض مرة ثانية ودعوت له، وقدَّمت له ولخواصّه الهدايا التي كانت معي. فكلَّما قدَّمت شيئًا سألَ عنه ثمّ يفرِّقه، ثمّ فعل بالمأكول كذلك.

ثمّ قال لي: أنت مغني الخليفة؟ فقلتُ نعم. فقال أيشٍ[1] أجود ما تعرف في علم الطرب؟

فقلتُ: أُحسِنُ أنْ أغنّي غناءً إذا سمعه الإنسان ينام.

قال: غَنِّ لي الساعة حتى أنام.

فندمتُ، وقلتُ: إن غنَّيتُ له ولم ينمْ قال هذا كذّاب، وربّما قتلني، ولا بدَّ من الخلاص منها بحيلة[2]. فقلتُ: يا خوند، الطربُ بأوتار العود لا يطيب إلاّ على شرب الخمر، ولا بأس بأن يشرب الملك قدَحين [أو] ثلاثة حتى يقع الطرب في موقعه.

فقال: أنا ما لي في الخمر رغبة، لأنّه يشغلني عن مصالح ملكي، ولقد أعجبني من نبيِّكم تحريمه. ثمّ شرب ثلاثة أقداح كبار فلما أحمرَّ وجهه أخذتُ عودًا وغنَّيته، وكان معي مغنية اسمها صَبا لم يكن في بغداد أحسن منها صورةً ولا أطيبَ صوتًا، فأصلحتْ أنغامَ العود على أنغامٍ وضربةٍ جالبةٍ للنوم مع زمر رخيم الصوت، وغنَّيتُ فلم أتمّ النوبة

(١) أداة استفهام بغدادية ما تزال مستعملة في بغداد حتى اليوم وتعني: أيّ شيء.

(٢) أي: أنّه كان يحدِّث نفسه بهذا الكلام.

حتى رأيته قد نعس فقطعت الغناءَ بغتةً وقوَّيتُ ضرب الأوتار، فانتبَهَ، فقبَّلتُ الأرض، وقلتُ: نامَ الملكُ، فقال: صدقتَ نمتُ. تَمَنَّ عليَّ.

فقلت: أتمنى على الملك أن يُطلق لي على السُّمَيكة[١].

قال: وأيّ شيء هو السُّمَيكة؟

قلت: بستانٌ للخليفة[٢].

فتبسَّم وقال لأصحابه: هذا مسكين، مغنٍّ قصير الهِمَّة. وقال للترجمان: قل له: لم لا تمنَّيت قلعة أو مدينة، أيشٍ هذا البستان؟

فقبَّلت الأرض وقلت: يا ملك، هذا البستان يكفي وأنا ما يجيء منّي صاحب قلعة ولا صاحب مدينة[٣]. فرسم لي بالبستان وبجميع ما كان لي من المراتب في أيام الخليفة، وزادني علوفةً[٤] تشتمل على خبز ولحم وعليق دوابّ يساوي دينارين، وكتب بذلك فرمانًا مكمَّل العلائم، وخرجتُ من بين أيديهم، وأخذ لي باتو نوين أميرًا بخمسين فارسًا، ومعهم علم أسود هو كان علم هُولاگُو الخاصّ به برسم حماية دربي[٥]. فجلس الأمير على باب الدرب، ونصبَ العلمَ الأسود على أعلى باب الدرب فبقي الأمر كذلك إلى أن رحل هُولاگُو عن بغداد»، وكان هُولاگُو قد عيَّنه مشرفًا عامًّا على أوقاف العراق، وخصّص له راتبًا يعادل ضعف الذي كان يعطيه إياه المستعصم[٦].

---

(١) أي: أن يهبه ذلك البستان فيكون ملكًا له.

(٢) هذا البستان كان ملكًا للقائد العسكريّ إقبال الشرابيّ (كتاب الحوادث: ١٩٩)، ولا ندري متى تملَّكه الخليفة المستعصم؟

(٣) أي: أنّ طموحي وقدرتي لا يؤهِّلانني لأن أكون مالكًا لقلعة أو حاكمًا لمدينة.

(٤) العُلوفة مؤونة الطعام الضرورية لغذاء الإنسان والدوابّ: (تكملة المعاجم العربيّة: دوزي: ٢٨١/٧).

(٥) الدرب هنا تعني الزقاق. وأرسل معه هولاكو خمسين فارسًا؛ لحمايته وحماية بيته والزقاق الذي فيه من أن يتعرَّض له أحد من المغول. وقد ظل هؤلاء مرابطين لديه إلى أن رحل هولاكو عن بغداد.

(٦) مسالك الأبصار: ٣٥٣/١٠، وينظر: الوافي بالوفيات: ١٦١/١٩، فوات الوفيات: ٤١٢/٢.

كم عاثوا فسادًا في بغداد؟

سنبحث هنا حالة بغداد العاصمة الأكثر ثراءً في كلّ شيء؛ لمعرفة ما إذا كانت كتب المكتبات العامّة والخاصّة داخلة في أعمالهم اللصوصية أم لا؟ مع أنّنا لا نعلم ما إذا كانت القوات الإسلاميّة التي جاء بها بعض الحكّام المسلمين لنصرة هُولاگُو[١]، واجتاح أفرادها بغداد مع المغول، أسهمت في عمليات السلب والنهب أم لا؟ تقول الرواية البغداديّة لشهود عيان: إنّ المغول كانوا يسيرون داخلَ المدينة في مجاميع «ومعهم الزرَّاقون والنجَّارون»، كما نقلنا آنفًا لكسر أبواب البيوت إذا لزم الأمر، أو لإحراقها واقتحامها على سكَّانها. قال أبو شامة عن الزرَّاقين: «الزرَّاقون النفَّاطون المتقنون صناعة الإحراق بالنار»[٢]، وكانوا يحملون الزرَّاقات، وهي آلات يُوضع فيها النفط يشبه عملها عمل المِحْقَنة (السِّرِنْجة) التي يوضع فيها الدواء، ويُحقن في جلد الإنسان، فكان الزرَّاقون يضغطون على ما في الزرَّاقات لينطلق النفط فيكون المكان قابلًا للاشتعال لدى تقريبِ نارٍ منه[٣].

نقرأ في كتاب الحوادث: «وُضِعَ السيف في أهل بغداد يوم الاثنين ٥ صفر (٦٥٦هـ)، وما زالوا في قتلٍ، ونهبٍ، وأسرٍ، وتعذيب الناس بأنواع العذاب، واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب، مدّة ٤٠ يومًا، فقتلوا الرجالَ، والنساءَ، والصبيانَ، والأطفالَ، فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلّا القليل» وتتابع هذه الرواية: «وأُحرق معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره، واستولى الخراب على البلد. وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول، فاستحالت صورهم وصاروا عِبرةً لمن يرى، ثمّ نُودي بالأمان فخرج من تخلَّف، وقد تغيرت ألوانهم، وذُهلت عقولهم لما شاهدوا من الأهوال التي لا يُعبَّر عنها بلسان، وهم كالموتى إذا خرجوا من القبور يوم النشور من الخوف والجوع والبرد...»[٤]، ويذكر الأشرف الغسّانيّ رقمًا مقاربًا فيقول:

---

(١) ينظر قائمة بأسماء هؤلاء في كتابنا إعادة كتابة التاريخ (الطبعة الثانية)، ٩٤-٩٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة: ١٢٠/٤.

(٣) نقرأ في الأعلاق الخطيرة: ٢ (٢)/٢٢٩: «ورمى الزرَّاقون في الستائر نيرانًا هتَكتْ حجابها»، وفي نهاية الأرب: ١٨٢/٣٠: «ورمى الزرَّاقون بالنفط فاحترق الباب».

(٤) كتاب الحوادث، ٣٥٩-٣٦٠، تاريخ گزيده حمد الله المستوفي: ٣٦٩.

«واستمر القتل والسبي بضعًا وثلاثين يومًا»[١]. وتؤيّد الروايةُ الشاميّةُ/المصريّة هذا الرقم[٢]، أو قريبًا منه كقول ابن الجزريّ «وبقي السيف يعمل ٣٤ يومًا»[٣]، لكن نصًّا بغداديًّا فريدًا يقول إنّ الغارة استمرّت سبعة أيام[٤].

التسلسل الزمنيّ للوقائع

استنادًا إلى مؤرّخي الرواية البغداديّة الأصيلة الذين رأوا بأعينهم الوقائع أو مؤرّخين نقلوا من شهود العيان هؤلاء، فقد كان تسلسل الوقائع كما يأتي:

٤ صفر سنة (٦٥٦هـ): استسلم الخليفة مع أنجاله الثلاثة لهولاكو، وبعد خروجهم من بغداد للقائه، أمر هُولاگُو بالإغارة على المدينة[٥].

٧ صفر سنة (٦٥٦هـ): بحسب رشيد الدين «كان بدء القتل العامّ والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر؛ فاندفع الجند المغول مرةً واحدة إلى بغداد، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس»[٦].

٨ صفر، يوم الخميس: دخل هُولاگُو إلى بغداد لمشاهدة قصر الخليفة، ثمّ أمر بإحضار الخليفة، وطلب إليه أن يدلّه على كنوزه السرِّيَّة، فاعترف له بمكانها واستُخرجت. ثمّ رجع هُولاگُو إلى معسكره ليلًا[٧].

---

(١) العسجد المسبوك، ٦٣١.

(٢) ينظر: مفرج الكروب: ٢١٦/٦، تاريخ الإسلام: ٨١٨/١٤، البداية والنهاية: ٢٣٥/١٣.

(٣) تاريخ حوادث الزمان وأنبائه (اختيار الذهبيّ): ٢٤٧.

(٤) ينظر رسالة كيفية واقعة بغداد: مجهول: المطبوعة في آخر كتاب جهانكشاي: ٢٩٠/٣ (طبعة قزويني).

(٥) ينظر: رسالة كيفية واقعة بغداد: ٢٩٠/٣ (طبعة قزويني)، تلخيص مجمع الآداب: ٢٠٨/٥، جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩١. ويجعل مؤلّف كتاب الحوادث (ص ٣٥٩)، بدء الإغارة في ٥ صفر.

(٦) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٠، ويجعل ابن الكازرونيّ-الذي كان في بغداد آنذاك - ذلك في ٨ صفر (مختصر التاريخ: ٢٧٣).

(٧) ينظر: تلخيص مجمع الآداب: ٢٠٨/٥، جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩١-٢٩٢، وفيه أن هولاكو دخل المدينة وأحضر الخليفة إلى القصر يوم الجمعة ٩ صفر.

بين ٩ صفر و ١٤ منه، وهو اليوم الذي سيُقتل فيه الخليفة، وبعد أن أرسل سكان بغداد الوسطاء الثلاثة الذين ذكرناهم «صدر الأمر بالتوقّف من بعد ذلك عن القتل والنهب؛ لأنَّ بغداد أصبحت مُلكًا لنا، فليستقرّ الأهالي، ولينصرف كلّ شخص إلى عمله. وبهذا وجدَ الأمان أولئك الذين نجوا من السيف»[١]. ولم يحدّد رشيد اليوم الذي توقّفت فيه الإغارة على المدينة، لكنّ مؤرّخًا مجهولًا تُعَدّ روايته جزءًا من الرواية البغداديّة المعتمدة لدينا قال «وبعد أسبوع من بدء الغارة على المدينة منحوا أهلها الأمان وجمعوا الغنائم»[٢]، ويؤيّد هذه الرواية ما قاله بيبرس المنصوريّ من أنّ المغول «بذلوا السيف في أرجاء المدينة سبعة أيام على تواليها»[٣].

١٤ صفر: مع غروب شمس هذا اليوم قُدِّر لحياة الخليفة المستعصم أن تشهد غروبها أيضًا، ففي هذا اليوم بإجماع المؤرّخين البغاددة الذين كانوا في المدينة آنذاك أو مَن نَقَلَ منهم، غَدَرَ هُولاكُو بالخليفة فقتَلَه وتعطّشًا لإثبات سطوته[٤].

في اليوم نفسه الذي قُتل فيه الخليفة أمر هُولاكُو بتشكيل ما يمكن تسميته حكومة الأمر الواقع التي اختار جميع أعضائها من الكادر العامل مع الخليفة المستعصم ومن كان محسوبًا على البلاط، ومن بينهم بعض رسل الخليفة الذين أرسلهم للتفاوض، فمَنَعَهم هُولاكُو من العودة إلى بغداد؛ ومن الواضح أنّه أرادهم لهذا اليوم ليُعيِّنهم لإدارة الدولة الجديدة[٥]، ثمّ «بعث بهم إلى بغداد ليقوموا بالعمارة في الحال وليعملوا على استتباب الأمن. ثمّ بادر كلّ شخصٍ بدفن قتلاه وطهّرت الطرق من جثث الحيوانات النافقة وعُمِّرت

(١) جامع التواريخ، ٢ (١)/٢٩٣، ينظر رسالة كيفية واقعة بغداد، ٢٩٠/٣ (طبعة قزويني).

(٢) رسالة كيفية واقعة بغداد، ٢٩٠/٣ (طبعة قزويني).

(٣) زبدة الفكرة بيبرس المنصوريّ: ٣٨. والمنصوريّ من رواة الرواية الشاميّة / المصريّة.

(٤) روضة اولي الألباب: ٤١٨، كتاب الحوادث: ٣٥٧، ابتداء دولة المغول: ٩٨، وفيه أنّه قتله عند الصلاة الثانية، جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٩٤، وفيه أنّه قتله مساء ذلك اليوم، رسالة كيفية واقعة بغداد: ٢٩١/٣ (طبعة قزويني). وقد عيَّنت الروايات الشاميّة/المصريّة تأريخ الرابع عشر أيضًا.

(٥) ينظر: كتاب الحوادث: ٣٦١، رسالة كيفية واقعة بغداد: ٢٩٠/٣ (طبعة قزويني)، إعادة كتابة التاريخ (ط الثانية): الهادي: ١٤٠-١٤٣.

الأسواق»؛ أي إنّ هُولاگُو أراد أن تمارس المدينة نشاطها وهو لمّا يزل بجوارها؛ لأنّ بغداد كما قال المغول: «أصبحت ملكًا لنا». ثمّ ترك حامية من الجنود المغول عدد أفرادها بين ٣٠٠٠ و٦٠٠٠ مقاتل بقيادة قائد مسلم جاء مع هولاكو.

إذن يوم ١٤ صفر توقّفت عمليات قتل الأهالي وتسليبهم، وخرج الجنود المغول من بغداد، فإذا أخذنا برواية رشيد الدين التي قال فيها: إنّ عمليات استباحة المدينة بدأت في ٧ صفر، وانتهت يوم ١٤ منه، تكون مدّة تلك العمليات الإجراميّة سبعة أيام أو ثمانية فقط، ففي ١٤ صفر أرسل هُولاگُو أعضاء الحكومة الجديدة لترتيب أوضاع الدولة، ولا يعقل أن يكون أرسلهم وعمليات القتل والنهب قائمة في المدينة فالأمر صريح وواجب التنفيذ فورًا؛ «ليقوموا بالعمارة في الحال وليعملوا على استتباب الأمن».

وأمّا مَن قال إن العمليات استمرت ٤٠ أو ٣٤ يومًا فقد بدأ حسابه منذ يوم ٩ محرّم؛ وهو اليوم الذي هُزمت فيه القوات العباسيّة، وانطلق الجنود المغول يطاردونهم إلى أن وصلوا جانب الكرخ فاحتلّوه. وإنَّ رقم (الأربعين) هو تصوُّر المؤرّخين الذين كانوا يعيشون في جانب الرصافة، ولم يكن بمقدورهم التيقُّن عمّا حدث في الكرخ لعدم تمكنهم من العبور إليه، وقد ذكرنا أنّ الكرخ كان خاليًا تقريبًا من سكانه حين احتله المغول؛ بسبب هروب أهله إلى الرصافة عند سماعهم بتقدّم المغول.

إنّ تسلسل الوقائع الذي ذكرناه لا يسمح بالقول بمدّة الأربعين يومًا؛ فالعمليات العسكرية كانت متواصلة خلال الأيام من ٩-٢٨ من المحرّم في الأقلّ، وهو اليوم الذي هدم فيه المغول برج العجميّ، واقتحموا الأسوار، وأزاحوا المقاتلين البغداديّين الذين كانوا يقفون عليها مدافعين[١]؛ بل إنّ العمليات كانت ما تزال متواصلة حتى اليوم الأول من شهر صفر عندما جاء سهم من جانب المقاتلين البغاددة فأصاب عين أحد أكابر أمراء هُولاگُو «فتملَّكه غضب عظيم وجَدَّ في الاستيلاء على بغداد، وأمر الخواجة نصير الدين الطوسيّ أن يقيم على باب الحلبة أمانًا للناس، فشرع الأهالي يخرجون من المدينة»[٢]،

(١) ينظر جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٧.

(٢) جامع التواريخ: ٢ (١)/٢٨٩.

ولم يرِدْ ما يشير إلى أنّ المغول قتلوا هؤلاء الذين خرجوا بهذا الأمان تحديدًا.

وقد أسلفنا أنّ عمليات القتل والسلب والنهب بدأت في ٤ صفر أو في السابع منه. فإذا زدنا إلى ذلك أنّ انتشار روائح جثث القتلى في الأزقّة والشوارع وتحت الأنقاض كان يجعل أولئك اللصوص القساة القلوب في عجلة لا تعطيهم الوقت الكافي للجمع بين عملية تسليب الأهالي وعملية الاهتمام بالتفتيش عن المكتبات العامّة والخاصّة لإحراقها أو لحملها في عربات والذهاب بها على وجبات لإلقائها في نهر دجلة فضلًا عن أن يقيموا بها جسرًا منظَّمًا راسخ الدعائم لعبور الجنود المغول ذهابًا وإيابًا !!!

مصير ما بقي من كتب مكتبات بغداد

إنّ كثرة المكتبات الخاصّة والعامّة في بغداد وأسواق الورّاقين ضاعف من كارثة المدينة التي كانت منارةً للعلم والمدنيّة، وكان طلاب العلوم يقصدونها من أقاصي الدنيا لتلقِّي العلوم، فمن الخبر اليقين أنّه عقب الغزو المغوليّ بقليل راجت سوق لبيع الكتب في بغداد؛ إذ دأبَ أهل مدينتي الحلّة والكوفة والسِّيب على جلب الأطعمة إلى بغداد «وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة والصُّفْر المطعَّم وغيره من الأثاث بأوهى قيمة، فاستغنى بهذا الوجه خلقٌ كثير منهم»[1].

ولا نعلم مِن أين يُؤتى بتلك الكتب؛ هل هي من أسواق الورّاقين التي انهارت جدرانها بفعل القصف أو الحرائق؟ أو هي من المكتبات العامّة والخاصّة التي دُمرت بفعل الأسباب نفسها أو بفعل اللصوص ومَن كان يبغي الشرّ ممّن يرافقون الغزاة عادةً، وربّما تعمَّد بعض الرعاع نهبها؟

وكان بعض كتب مكتبات بغداد قد أخذه نصير الدين الطوسيّ إلى مكتبة المرصد الفلكيّ الذي بناه بأمرٍ وتمويلٍ من هولاكو، حيث نجده يصل بغداد سنة (٦٦٢هـ) للنظر في أوضاع الأوقاف «ثمّ انحدر إلى واسط والبصرة، وجمعَ من العراق كتبًا كثيرة لأجل الرَّصْد»[2].

(١) كتاب الحوادث: ٣٦١.

(٢) كتاب الحوادث: ٣٨٢.

ويستعمل الذهبيّ والصفدي الفعلّ «نُهِبَ»، فنقرأ قولهما: «فابتنى بمدينة مراغة قبَّةً ورصدًا عظيمًا، واتَّخذ في ذلك خِزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على ٤٠٠٠٠٠ مجلَّد»[١]. وللأسف لا نعلم ما الذي حلَّ بمكتبة المرصد في مدينة مراغة؟ وأين ذهبت كتبها بعد أن تحوّل المرصد إلى خراب بعد قرابة (٦٨ سنة) من إنشائه[٢]؟ وبعد أن أدَّى وظيفته العلمية في الخلق والابتكار العلميّين اللذين يتردّد صداهما في الأوساط العلميّة حتى يومنا هذا. وكان للطوسيّ أيضًا مكتبة خاصّة به غير مكتبة الرصد[٣].

أمّا المدارس والمكتبات فبقي المشهور منها قائمًا وظلّ الطلاب والعلماء يتوافدون عليها؛ حيث نقرأ في ترجمة المؤرّخ البغداديّ ابن الفُوطِي أنّه بعد فراره من أسر المغول سنة (٦٥٩هـ) التحق بنصير الدين الطوسيّ في مرصد مراغة، ومكث هناك بضع عشرة سنة «ثمّ عاد إلى بغداد، ووليَ خزن كتب [مكتبة المدرسة] المستنصريّة، فبقي عليها إلى أن مات»[٤]، في سنة (٧٢٣هـ)، ومكث في هذه الخِزانة المؤرّخ البغداديّ ابن الساعي حتى وفاته سنة (٦٧٤هـ)[٥]. وينقل ابن فضل الله عن يحيى الطياريّ البغداديّ (٦٨٥-٧٦٠هـ) قوله عن الأوقاف في أنحاء العراق آنذاك: إنّها «جارية في مجاريها، لم تعترضها أيدي العدوان في دولة هُولاكُو ولا فيما بعدها، بل كلُّ وقف مستمرٌّ بيد مُتولِّيه ومن له الولاية عليه»[٦].

---

(١) تاريخ الإسلام: ٢٥٢/١٥، وينظر الوافي بالوفيات: ١٤٧/١.

(٢) قال حمد الله المستوفي في نزهة القلوب (ص ٨٧) الذي انتهى من تأليفه سنة (٧٤٠هـ): «هو الآن خَرِب».

(٣) ينظر تلخيص مجمع الآداب: ٢٢/٤.

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب: ٤٤٩/٤.

(٥) ينظر المقتفي: البرزاليّ: ٤٨٦/١.

(٦) مسالك الأبصار: ١٦٥/٣. والطياريّ البغداديّ هو يحيى بن عبد الرحمن الجعفريّ، وُلد في بغداد وقد اشتغل في الكتابة لدى المغول وأقام في السلطانيّة وكان بها سنة (٧١٧هـ)، وعلى صلة بابن الفُوطِي، وكان موسيقيًّا معروفًا، ذهب إلى القاهرة ومكث هناك مدّة ثمّ ذهب إلى دمشق وشغل

ونشهد مثلًا سنة (٦٥٩هـ) تعيين الشيخ ابن عكبر مدرّسًا لطائفة الحنابلة في المدرسة المستنصريّة، وحضر درسه الحاكم المغوليّ للعراق «علاء الدين عطا ملك الجوينيّ والأكابر والعلماء وخُلِعَ عليه»[١]. وعلى عهد الحاكم علاء الدين عطا ملك الجوينيّ (حكم في السنوات ٦٥٧-٦٨١هـ)، وصل المؤرّخ هندوشاه النخجوانيّ بغداد، وسكن في المدرسة المستنصرية وذكر أسماء بعض الأساتذة الذين كانوا يواصلون التدريس هناك ووصف نشاط القسم الطبّيّ فيها[٢].

وفي سنة (٦٦٥هـ) كان وصول العالم ابن الكيشيّ إلى بغداد «وعُيِّنَ مُدرِّسًا بالمدرسة النظاميّة، وحضر درسه الحكام والعلماء»[٣]. ونجد لاحقًا أسماء أشخاص وفياتهم متأخّرة عن تأريخ الواقعة، ممّا يدلّ على استمرار النشاط في المدارس والمكتبات، فنجد مثلًا سَنْجَر الطبيب (٥٩٣-٦٧٤هـ) يتولّى نظر المدرسة النظامية[٤] ، ولدينا شهادة ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة (٧٢٧هـ)، وقال عن الجهة الشرقية منها (الرصافة): إنّها «حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يُعرف بـ(سوق الثلاثاء)، كلُّ صناعةٍ فيها على حِدة، وفي وسط هذا السوق المدرسة النظاميّة العجيبة التي صارت الأمثال تُضرب بحُسنها، وفي آخره المدرسة المستنصريّة»[٥].

وكان التدريس قائمًا في مدارس أُخر؛ كالمدرسة البشيريّة ومدرسة الأصحاب، والمدرسة المغيثيّة، ومدرسة الشرابيّ، ونشهد أحيانًا حركة تنقُّلات بين المدارس[٦]، فضلاً

منصبًا رسميًّا مدةً ومن هناك عاد إلى بغداد (ينظر: تلخيص مجمع الآداب: ٥٢٦/٤، الدرر الكامنة: ابن حجر العسقلانيّ: ٤١٧/٤، الأعلام: الزركليّ: ١٥٢/٨)، وعليه فمعلوماته دقيقة.

(١) كتاب الحوادث: ٣٧٦.

(٢) ينظر تجارب السلف: هندوشاه النخجوانيّ: ٣٧٤.

(٣) كتاب الحوادث: ٣٨٩.

(٤) ينظر المقتفي: ١٦٧/٥.

(٥) تحفة النظّار: ٦٢/٢. وقد حدَّد العالِمان جواد وسوسة موقع سوق الثلاثاء وما فيه في دليل خارطة بغداد: ١٧٤.

(٦) كتاب الحوادث: ٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤١٣، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٤٢، ٤٦٩، ٤٨٣، ٤٩٣، ابن الدر الثمين: ١٨٦.

عن بعض الأنشطة العباديّة التي تتطلّب الخروج ليلًا مثل صلاة التراويح[١].

ونجد أيضًا ظاهرة استمرار تأسيس معالم علميّة جديدة، من ذلك أنّ ذات العِصمة شاه لبنى الأيوبيّة زوجة حاكم العراق علاء الدين الجوينيّ أنشأت المدرسة العصمتيّة التي تكاملَ بناؤها سنة (٦٧١هـ) لتدريس فقه المذاهب الأربعة، وبُوشر التدريس فيها عند افتتاحها، وبنتْ إلى جانبها تربةً ورباطًا للمتصوّفة[٢]، وهذا محيي الدين ابن العاقوليّ المولود سنة (٧٠٤هـ) يتولّى التدريس في المستنصريّة[٣].

ووجدنا أحد التجار المحسنين بنى سنة (٦٧٧هـ) «دارًا للقرآن المجيد ووقف عليها عدّة أماكن»[٤]؛ كما بنى إمام الدين يحيى البكريّ الذي تولّى حكم العراق للمغول منذ سنة (٦٩٣) حتى وفاته سنة (٧٠٠هـ) مدرسةً بدرب فراشا، وعمل فيها قبرًا دُفن فيه[٥].

وهناك إجازة كُتبت في المدرسة المستنصرية سنة (٦٩٠هـ) ورد فيها ما يأتي: «كتبه أحمد بن الساعاتي الشاميُّ الأصلُ البغداديُّ المنشَأ بالمدرسة الشريفة المستنصريّة على بانيها (؟) في رجب المبارك سنة تسعين وستّ مئة»[٦].

ووجدنا في حوادث سنة (٦٧١هـ) أن شرف الدين هارون ابن شقيق حاكم العراق علاء الدين الجوينيّ يجلس على السُّدَّة في المدرسة النظاميّة، ويُلقي درسًا حضرَه «عمُّه علاء الدين وكافة أرباب الدولة والمدرِّسون والعلماء والفقهاء»[٧].

ولدينا مشيخة سراج الدين القزوينيّ الذي وُلد بقزوين سنة (٦٨٣هـ)، ونشأ بمدينة

---

(١) ينظر كتاب الحوادث: ٤٠٦.

(٢) ينظر: تلخيص مجمع الآداب، ٤٢٤/٤، كتاب الحوادث، ٤٠٨.

(٣) ينظر منتخَب المختار المذَيَّل به على تاريخ ابن النجّار: تقيّ الدين الفاسيّ: ١٨٥.

(٤) كتاب الحوادث: ٤٠٨-٤٠٩، ٤١٣، ٤٤٣، وينظر تلخيص مجمع الآداب: ٤٢٤/٤.

(٥) ينظر كتاب الحوادث: ٥٤٥.

(٦) كتائب أعلام الأخيار: الكفويّ: ٤٩/٢ب. وهو الفقيه الحنفيّ الشهير أحمد بن عليّ بن تغلب الساعاتيّ المُتوفّى سنة (٦٩٤هـ). ويبدو أنّ شيئًا سقط من العبارة .

(٧) كتاب الحوادث: ٤٤٣.

واسط ثمّ قدم إلى بغداد سنة (٧٠٠هـ)[١]، فمكث فيها بمنزله بمحلة المأمونيّة في الجانب الشرقيّ[٢] حتى وفاته في (٧٥٠هـ) فهذا الرجل قرأ على مجموعة من المشايخ ببغداد حشدًا من المؤلّفات في أماكن متفرّقة من المدينة مثل مكتبة المدرسة المستنصريّة، وجامع الحربيّة في الكرخ، والخِزانة العتيقة بالمدرسة النظاميّة، وفي الرباط المستجد، وفي درب القرنفليّين بالرصافة، بل إنّه يهتبل فرصةً ذهب فيها في سفينة بدجلة لزيارة قبر الإمام أحمد بن حنبل فقرأ كتابًا على أحد المشايخ، وهو على ظهر السفينة[٣]. وقد قدَّم معلومات وافية عن بعض الكتب فيما زاره من مكتبات، فهو يقول مثلًا عن غريب الحديث لابن سلام: «قرأته جميعه من نسخة بوقف الخِزانة العتيقة بالنظاميّة من بغداد، ستّ مجلّدات، الرابع منه مفقود ثمّ من نسخة بوقف الرباط المستجد»، أو يقول: «كتاب تاريخ مدينة السلام بغداد في اثني عشر مجلّدًا بخطهِ (يعني بخطّ الخطيب البغداديّ) بوقف المستنصريّة»[٤].

لكن ذلك لا يعني عودة الأمور إلى ما كانت عليه، فهيهات أن تعود أيام النعيم الفكريّ لبغداد، ثمّ إنّنا سنجد خِزانة مكتبة المدرسة المستنصريّة «منذ بداية المئة التاسعة للهجرة خاليةً خاوية؛ إذ تشتَّتت كتبها بالحرق، والنهب، والتمزيق، والتغريق»[٥].

(١) ينظر: منتخَب المختار: ١٦١، الأعلام: ٥٧/٥.

(٢) قال الدكتور مصطفى جواد عن المأمونيّة: «هي اليوم محلّة عقد القشل والدهَّانة والهِيتاويين وصبابيغ الآل» (دليل خارطة بغداد: ١٢٤).

(٣) ينظر سراج الدين القزوينيّ، المشيخة، الأوراق ٤١ أ-ب، ٤٣ب، ٤٧أ، ٤٩أ، ٨١ب.

(٤) سراج الدين القزوينيّ، المشيخة، الورقتان، ٤٧أ، ١٦٨أ.

(٥) دور الكتب العربيّة العامّة: ١٧٠.

الخلاصة

١. كان بقاء الجنود المغول في بغداد سبعة أيام أو ثمانية، مارسوا فيها اللصوصيّة، وتعذيب المواطنين، أو الضغط عليهم ليدلُّوهم على أموالهم ومدَّخراتهم، وهي مدّة لا تكفي لأن يقوموا بعمل آخر مثل البحث عن الكتب التي لا تجلب لهم نفعًا مادّيًّا.

٢. لا يوجد أيّ أساسٍ تاريخيّ لما قيل من أنّ المغول تعمَّدوا مهاجمة المكتبات العامّة أو الخاصّة في بغداد لتدميرها أو إحراقها وإنْ حدث ذلك فبسبب العمليات القتاليّة وخصوصًا قصف قذائف المجانيق الصخريّة أو إلقاء قارورات النفط.

٣. لم يَقُمِ المغول بإلقاء كتب مكتبات بغداد في نهر دجلة بقصد إتلافها أو رصفها بصورة هندسيّة؛ بغية إقامة جسر راسخ الدعائم يمكِّن العدد الضخم من الجنود المغول من العبور عليه.

٤. إنّ بقاء بعض مكتبات بغداد الشهيرة سالمة من الإحراق والتدمير بعد خروج المغول منها لا يؤيّد القول: إنّ الغزاة أبادوها بتمامها، فضلًا عن مكتبات المدارس الشهيرة مثل: النظاميّة والمستنصريّة وقد رآهما ابن بطوطة عندما زار بغداد سنة ٧٢٧هـ، فقد نَجَت مثلًا المكتبتان اللّتان شيّدهما المستعصم وذكرناهما آنفًا، ولم يصبهما ضرر في الحصار المغوليّ[١].

(١) كما يقول الدكتور جواد في دليل خارطة بغداد المفصّل: ١٥٨.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطة

١. كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار: الكَفَويّ، محمود بن سليمان الروميّ الحنفيّ توفّي نحو سنة (٩٩٠هـ)، مخطوطة مكتبة مجلس الشورى الإسلاميّ، طهران، الرقم ٤١٢٣.

٢. مشيخة سراج الدين القزوينيّ: سراج الدين القزوينيّ، عمر بن عليّ بن عمر الشافعيّ (٧٥٠هـ)، مكتبة فيض الله تحت الرقم ٥٣١.

ثانيًا: المطبوعة

٣. ابتداء دولة المغول وخروج جنكيز خان: قطب الدين الشيرازيّ (٧١٠هـ)، ترجمة وتحقيق: يوسف الهادي، مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسيّة المقدّسة، كربلاء، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

٤. اتِّعاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخُلَفا: أحمد بن عليّ بن عبد القادر الشافعيّ المقريزيّ، (٨٤٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد حلمي محمّد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٥. أخبار أبي نواس: ابن منظور (٧١١هـ)، تحقيق: محمّد عبد الرسول إبراهيم، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

٦. إخوان الصفا بين الكنديّ والفارابيّ، (بحث منشور في كتاب قلاع العقل، دراسات إسماعيليّة وإسلاميّة تكريمًا لفرهاد دفتري): الدكتور عباس الهَمْدَانيّ، تحرير: الدكتور عمر عليّ دي أونثاغا، ترجمة: سيف الدين قصير، دار الساقي بالاشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيليّة، بيروت، ٢٠١٤م.

٧. إدارة الجثث بعد وقوع الكوارث: أوليفر مورغان وآخرون، إصدار منظمة الصحة العالميّة مع مجموعة منظمات دوليّة، واشنطن دي سي (كولومبيا)، ٢٠٠٦م.

٨. إعادة كتابة التاريخ، الغزو المَغُوليّ للعراق أُنموذجًا: يوسف الهادي، المجمع العالميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، طهران، ط٢، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، وكانت طبعته الأولى قد صدرت عن دار الوسط في لندن سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م تحت عنوان إعادة كتابة التاريخ، إسقاط الخلافة العَبَّاسِيَّة أنموذجًا.

٩. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: عزّ الدين مُحَمَّد بن عَليّ بن إبراهيم ابن شدَّاد، (٦٨٤هـ)، تحقيق: يحيى عَبَّارة، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، ١٩٨٧م.

١٠. الأعلام: خير الدين الزِّرِكْليّ (١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

١١. ألف ليلة وليلة: مجهول، تحقيق: مكسيميليانوس هابخط (١٨٣٩م)، مطبعة المدرسة، مدينة برسلاو (في ألمانيا)، ١٨٢٤م.

١٢. الإمتاع والمؤانسة: عليّ بن مُحَمَّد بن العباس التوحيديّ، قرابة (٤١٤هـ)، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ١٩٣٩/١٩٤٤م.

١٣. إنباط المياه الخفية: محمد بن الحسن الحاسب الكرخيّ (٤١٠هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩هـ.

١٤. الأنساب: السمعانيّ (٥٦٢هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٥. البداية والنهاية: ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: عَليّ شيري، دار إحياء التراث العَرَبيّ، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٦. بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن هبة الله العقيليّ الحنفيّ ابن العديم (٦٦٠هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دمشق، دار الفكر.

١٧. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبيّ (٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٨. تاريخ الأمم والملوك: محمّد بن جرير الطبريّ (٣١٠هـ)، مؤسسة الأعلميّ، بيروت.

١٩. تاريخ البيهقيّ: أبو الفضل البيهقيّ (٤٧٠هـ)، ترجمة: يحيى الخشّاب وصادق نشأت، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٠. تاريخ الحكماء: القفطيّ، عليّ بن يوسف (٦٤٦هـ)، وهو تحقيق: يوليوس ليبرت، لايبزك، ١٣٢٠هـ/١٩٠٤م.

٢١. تاريخ حوادث الزَّمَان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (اختيار الذهبيّ): ابن الجزريّ، أبو الخير محمّد بن محمّد (٧٣٩هـ)، تحقيق: خضير عباس مُحَمَّد خليفة المنشداويّ، دار الكتاب العَرَبيّ، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٢. تاريخ الخلافة الأمويّة والعباسيّة والدول الإسلاميّة وأوروبا في العصور الوسطى: رفيق المهاينيّ، ط٢، مختصرة ومنقحة، المكتبة الكبرى، ١٩٤٧م.

٢٣. تاريخ الزَّمَان: ابن العِبْرِيّ، غريغوريس بن هارون الملطيّ(٦٨٥هـ)، تَرْجَمَة: الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٤. تاريخ الصين: إليسيف، دانييل، ترجمة: يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م.

٢٥. تاريخ ضائع، التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه: مايكل مورغان هاملتون ترجمة: أميرة نبيه بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢٦. تاريخ العلوم العام، العلم القديم والوسيط: تاتون، رنيه، ترجمة: الدكتور علي مقَلد، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢٧. تاريخ فتوحات المغول: ج. ج ساندرز، ترجمة: أبو القاسم حالت، نشر: مؤسّسة أمير كبير، طهران، ١٩٨٤م.

٢٨. تاريخ مختصر الدول: ابن العبريّ، ترجمة: الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٩. تاريخ مدينة السلام: الخطيب البغداديّ، أحمد بن عليّ بن ثابت (٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١٢م.

٣٠. تاريخ مصر الإسلاميّة زمن سلاطين بني أيوب: الدكتور أحمد فؤاد سيّد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٣١. تاريخ الموسيقى العربيّة حتى القرن الثالث عشر الميلاديّ: هنري جورج فارمر (١٩٦٥م)، ترجمة: جرجيس فتح الله المحامي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٢. تجارب الأمم: مسكويه، أحمد بن محمّد بن يعقوب (٤٢١هـ)، تحقيق: الدكتور أبو القاسم إمامي، دار سروش، طهران، ٢٠٠١م.

٣٣. تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة، محمّد بن عبدالله اللواتيّ الطنجيّ (٧٧٩هـ) تحقيق: الدكتور عبد الهادي التازيّ، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، الرباط، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣٤. التذكرة الحمدونيّة: ابن حمدون، محمّد بن الحسن بن محمّد (٥٦٢هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

٣٥. التعامل مع جثث الموتى في حالة الكوارث: مجموعة خبراء في الطبّ الشرعيّ والأمراض المعدية والتعامل مع الكوارث، إصدار منظمة الصحة العالميّة والمكتب الإقليميّ لشرق المتوسط ومنظمة الصحة للبلدان الأمريكيّة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٦. التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد: ابن نقطة، محمّد بن عبد الغني بن أبي بكر الحنبليّ البغداديّ (٦٢٩هـ)، تحقيق: كمال الحوت، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٧. تكملة الإكمال: ابن نقطة، محمّد بن عبد الغني، تحقيق: الدكتور عبد القَيُّوم عبد ربّ النبيّ، مركز إحياء التراث الإسلاميّ بجامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣٨. تكملة المعاجم العَرَبِيَّة: دوزي، رينهارت بيتر آن (١٨٨٣م)، تَرْجَمَة: الدكتور مُحَمَّد سليم النعيميّ، مراجعة: جمال الخيَّاط، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، طُبع في السنوات ١٩٨٠-٢٠٠٠م.

٣٩. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ابن الفُوَطِيّ، عبدالرزاق بن أحمد الصابونيّ (٧٢٣هـ)، تحقيق: مُحَمَّد الكاظم، وزارة الثقافة والإرشاد، طهران، ١٤١٧هـ.

٤٠. ثمرات الأوراق: ابن حِجَّة، أبو بكر بن عليّ بن محمّد الحمويّ (٨٣٧هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٤١. جامع التواريخ: رشيد الدين الهمذانيّ (٧١٨هـ)، ترجمة: محمّد صادق نشأت وآخرون، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، القاهرة، ١٩٦٠م.

٤٢. الجغرافيا: ابن سعيد المغربيّ عليّ بن موسى (٦٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور إسماعيل العربيّ، بيروت، ١٩٧٠م.

٤٣. الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ترجمة: محمّد عبد الهادي أبو ريدة، دار

الكتاب العربيّ، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٤٤. خريدة القصر وجريدة العصر: العماد الإصفهانيّ (ت٥٩٧هـ)، حقّقه وشرحه: محمد بهجة الأثريّ، وزراة الإعلام العراقية، بغداد.

٤٥. الدرّ الثمين في أسماء المصنِّفين: ابن الساعي، عليّ بن أنجب بن عبد الله الخازن البغداديّ الشافعيّ (٦٧٤هـ)، تحقيق: أحمد شوقي بنبين ومحمّد سعيد حنشي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٤٦. دراسات في الموسيقى الشرقيّة: الدكتور هنري فارمر، جمع وإعداد: إيكهارد نويباور، ترجمة: أماني المنياويّ، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٤٧. دراسة في ياقوت وكتابه معجم الأدباء: الدكتور إحسان عباس، ملحق في آخر الجزء السابع من معجم الأدباء لياقوت؛ فليُراجع هناك.

٤٨. الدُّرَر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن عليّ بن محمّد الشافعيّ (٨٥٢هـ) تحقيق: مُحَمَّد عبد المعين خان، دائرة المعارف العُثْمَانيّة، حيدر آباد الدكن، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٤٩. دليل خارطة بغداد المفصَّل: الدكتور مصطفى جواد، وأحمد سُوسَة، الدكتور أحمد نسيم، المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٥٠. دور الكتب العربية العامّة وشبه العامّة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط: الدكتور يوسف العش (١٩٦٧م)، ترجمة: نزار أباظة ومحمّد صباغ، دار الفكر، دمشق، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٥١. ديوان لغات الترك: محمود بن الحسين الكاشغريّ، دار الخلافة العليّة، ١٣٣٣هـ.

٥٢. الذخائر والتحف: أحمد الرشيد بن الزبير كان حيًّا سنة (٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد حميد الله، وزارة الإعلام الكويتيّة، الكويت، ١٩٨٤م.

٥٣. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: أغا بزرك الطهرانيّ (١٣٨٩هـ)، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥٤. ذيل تاريخ مدينة السلام: محمّد بن سعيد ابن الدُّبَيْثيّ (٦٣٧هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٥٥. الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبليّ (٧٩٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن بن سليمان بن العثيمين، مكتبة العبيكان، مكّة المكرّمة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

٥٦. ذيل مرآة الزمان: موسى بن محمّد البعلبكيّ الحنبليّ اليونينيّ (٧٢٦هـ)، تحقيق: الدكتور عباس هاني الجرّاخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٣م.

٥٧. رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء: مجهول[1]، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٧٥م.

(١) يعتقد الدكتور عباس الهَمْدانيّ في بحثه المعنوَن (إخوان الصفا بين الكنديّ والفارابيّ)، أنّ الرسائل «تعود إلى أواخر القرن ٣هـ/٩م، وبتحديد أكبر إلى الفترة ما بين ٢٦٠هـ/٨٧٣م، تاريخ

٥٨. رسالة الغفران: أبو العلاء المعرّيّ، تحقيق: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م.

٥٩. رسالة كيفية واقعة بغداد، رسالة منسوبة لنصير الدين مُحَمَّد الطُّوسيّ الإماميّ (٦٧٢هـ)، وهي ليست له[1] طُبعت ملحقة بكتاب تاريخ جَهَانْگُشَا تأليف: علاء الدين عَطَا مَلِك الجُوَيْنيّ (٦٨٠هـ): مجهول، تحقيق: محمّد قزويني، ليدن، ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م.

٦٠. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: بَيْبَرْس المنصوريّ الدوادار (٧٢٥هـ)، تحقيق: دونالد ريتشاردز، المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقيّة في بيروت، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٦١. سقوط الدولة العَبَّاسِيَّة ودور الشِّيعَة بين الحقيقة والاتّهام: الدكتور سعد بن مُحَمَّد حُذيفة الغامِديّ، دار ابن حذيفة، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٦٢. سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي: العصاميّ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكّيّ الشافعيّ (١١١١هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعليّ محمّد معوّض، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٦٣. سنا البرق الشاميّ، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الإصفهانيّ: البُنْدَاريّ، الفَتْح بن علي (٦٤٣هـ)، تحقيق: فتحيّة النَّبراويّ، مكتبة الخانجيّ، مصر، ١٩٧٩م.

٦٤. سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذَّهَبيّ(٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، بيروت، ١٤٠١هـ.

٦٥. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزليّ (٦٥٦هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.

٦٦. شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، الدار الجماهيريّة ودار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ط٩، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٦٧. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن عليّ القلقشنديّ (٨٢١هـ)، القاهرة، ١٩٦٣م.

٦٨. طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن عليّ السُّبْكيّ (٧٧١هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمّد الحلو ومحمود الطناحيّ، مصر، ١٩٩٢م.

٦٩. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: ابن خلدون (٨٠٨هـ)، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٧٠. العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك: الأشرف الغَسَّانيّ، إسماعيل بن

اختفاء آخر أئمّة الشيعة الاثني عشريّة وبروز التوقُّعات المهدويّة، وبين ٢٩٧هـ/٩٠٩م، عندما تمَّ تأسيس الخلافة الفاطميّة تحقيقًا لهذه التوقعات» (قلاع العقل: ٢٠٨)

(١) أثبتنا أنها ليست له في بحث تحت عنوان: هل كتب نصير الدين الطُّوسِيّ ذيل تاريخ جهانگشا؟ نُشر في مجلّة الخِزانة (ينظر هل كتب نصير الدين: يوسف الهادي، في فهرست المصادر والمراجع).

العباس بن رسول (٨٠٣هـ)، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلاميّ ودار البيان، بغداد، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٧١. عصر المغول: جورج لاين، ترجمة: تغريد الغضبان، مؤسسة كلمة، أبو ظبي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

٧٢. عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجيّ (٦٦٨هـ)، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٧٣. عيون التواريخ: ابن شاكر الكتبيّ (٧٦٤هـ)، تحقيق: الدكتور فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد، ١٩٨٠م.

٧٤. الفَخْريّ في الآداب السلطانيَّة والدول الإسلاميَّة: ابن الطِّقْطَقَى، محمّد بن عليّ بن محمّد (٧٢٠هـ)[1]، دار صادر، بيروت.

٧٥. الفهرست: ابن النديم، محمد بن إسحاق المعتزليّ (٣٨٠هـ)، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٣٥٠هـ.

٧٦. فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبيّ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

٧٧. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت: الدكتور راغب السرجانيّ، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٧٨. الكامل في التاريخ: الابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن الجزريّ (٦٣٠هـ)، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٧٩. كتاب البلدان: ابن الفقيه، أحمد بن محمّد بن إسحاق الهمذانيّ (كان حيًّا سنة ٢٩٠هـ)، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٨٠. كتاب البلدان، طُبع ملحقًا بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة اليعقوبيّ، (كان حيًّا سنة ٢٩٢هـ): تحقيق: دي خويه، ليدن، ١٨٩٢م.

٨١. كتاب الحوادث: مجهول، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف والدكتور عماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٧م.

٨٢. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسيّ الدمشقيّ الشافعيّ (٦٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٨٣. كتب تحترق: بولاسترون، لوسيان، ترجمة: هاشم صالح ومحمّد مخلوف، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ٢٠١٠م.

٨٤. الله ليس كذلك: زيغريد هونكه (١٩٩٩م)، ترجمة: غريب محمّد غريب، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(١) استندنا في تحديد وفاته في هذه السَّنة إلى ما حقَّقه السيِّد علاء الموسويّ الدمشقيّ في مقدّمته لكتاب المختصر في مشاهير الطالبيّة والأئمّة الاثني عشر: ابن الطِقْطَقى: ٨٢-٨٤.

٨٥. مجمل التواريخ والقصص: حفيد المهلَّب بن محمّد بن شادي، تحقيق: ملك الشعراء بهار، طهران، ١٩٣٠م.

٨٦. مختصر أخبار الخلفاء، منسوب لعليّ بن أنجب ابن الساعي البغداديّ الشافعيّ، وهو ليس له جزمًا[1]: مجهول، المطبعة الأميريّة في بولاق، القاهرة، ١٣٠٩هـ.

٨٧. مختصر التاريخ من أول الزَّمَان إلى منتهى دولة بني العباس: ظهير الدين عليّ بن محمّد الكازَرُونيّ (٦٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٠م.

٨٨. المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، إسماعيل بن عَليّ بن محمود (٧٣٢هـ)، مكتبة المثنى، القاهرة.

٨٩. المختصر في مشاهير الطالبيَّة والأئمة الاثني عشـر: ابن الطِّقْطَقَى، تحقيق: السيّد علاء الموسويّ الدمشقيّ، مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العَتبة العباسيَّة المقدَّسة، كَربَلاء، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٩٠. مرآة الزمان: سِبط ابن الجوزيّ (٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوريّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

٩١. مراصد الاطِّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: ابن عبد الحقّ، صفيّ الدين عبد المؤمن البَغْدَادِيّ الحَنْبَلِيّ (٧٣٩هـ)، تحقيق: عَليّ مُحَمَّد البجاويّ، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٩٢. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ابن فضل الله العُمَريّ (٧٤٩هـ)، حقَّق بعض أسفاره وأشرف على تحقيقه: الدكتور كامل سلمان الجبوريّ بالاشتراك مع الأستاذ مهدي النجم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٩٣. معجم الأدباء: ياقوت الحمويّ (٦٢٦هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.

٩٤. معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحمويّ (٦٢٦هـ)، تحقيق: فرديناند وستنفلد، لايبزك، ١٨٦٩م.

٩٥. مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب: ابن واصل، مُحَمَّد بن سالم بن واصل التَّميميّ الحَمَويّ الشَّافِعِيّ (٦٩٧هـ)، ج٥، تحقيق: الدكتور حسنين محمّد ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م، ج٦، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٩٦. المقابر والمشاهد بجانب مدينة السلام ومواضع قبور الخلفاء أئمّة الإسلام: ابن الساعي، عليّ بن أنجب، تحقيق: أحمد شوقي بنبين ومحمّد سعيد حنشي، الخِزانة الحسنيّة، مراكش، ٢٠٠٨م.

٩٧. المقابسات: أبو حيّان التوحيديّ، تحقيق: محمّد توفيق حسين، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٠م.

٩٨. المقتفي على كتاب الروضتين: البِرْزَالِيّ، علم الدين القاسم بن مُحَمَّد بن يوسف الشَّافِعِيّ ٧٣٩هـ)، تحقيق: الدكتور تركي بن فهد آل سعود والدكتور بشّار عوّاد معروف، الآثار الشرقيّة، عمَّان، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

(١) أثبتنا عدم صحة نسبته لابن الساعي، ينظر هذا الفهرس: الهادي.

٩٩. مقدّمة الأدب: أبو القاهر محمود بن عمر الزَّمَخْشَريّ (٥٣٨هـ)، تحقيق: محمّد كاظم إمام، دانشگاه طهران، طهران، ١٩٦٣م.

١٠٠. المكاييل والأوزان الإسلامية: فالتر هنتس، ترجمة: كامل العسليّ، منشورات الجامعة الأردنيّة، عمَّان، ١٩٧٠م.

١٠١. مناقب بغداد، منسوب لابن الجوزيّ عبد الرحمن بن عليّ (٥٩٧هـ): مجهول، تحقيق: محمّد بهجة الأثريّ، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م.

١٠٢. منتخَب المختار المذَيَّل به على تاريخ ابن النجار لمحمّد بن رافع بن هجرس السلاميّ الشافعيّ (٧٧٤هـ): تقيّ الدين الفاسيّ، محمّد بن أحمد الفاسيّ المالكيّ (٧٧٥-٨٣٢هـ)، تحقيق: عباس العَزَّاويّ، مطبعة الأهالي، بغداد، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

١٠٣. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ابن الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عطا ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٠٤. موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين: جوزيف نيدهام (١٩٩٥م)، ترجمة: محمّد غريب جودة، الهيأة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٠٥. موسوعة تاريخ العلوم العربية: الدكتور رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربيّة مع مؤسّسة شومان، بيروت، ١٩٧٧م.

١٠٦. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي (٨٧٤هـ)، دار الكتب المصريّة، القاهرة.

١٠٧. نزهة المقلتين في أخبار الدولتين: ابن الطوير، عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام الفِهْريّ القيسرانيّ (٦١٧هـ)، تحقيق: الدكتور أيمن فؤاد سيّد، المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقيّة، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م.

١٠٨. نساء الخلفاء المسمّى جهات الأئمّة الخلفاء من الحرائر والإماء: ابن الساعيّ، عليّ بن أنجب، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.

١٠٩. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: التنوخي، المحسِّن بن عليّ بن محمّد البصريّ الحنفيّ (٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجيّ، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

١١٠. نصير الدين الطوسيّ دراسة في سيرته: الدكتور سلام عليّ الجابريّ، دار الرافد، بغداد، ٢٠١٥م.

١١١. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المَقَّريّ (١٠٤١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ١٩٦٨م.

١١٢. نهاية الأَرَب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النُّوَيْريّ (٧٣٣هـ)، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلميَّة، بيروت،١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١١٣. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَديّ (٧٦٤هـ)، تحقيق: مجموعة محقّقين، طبعت أجزاؤه في بيروت وفيسبادن في سنوات مختلفة.

١١٤. يتيمة الدهر: الثعالبي (٤٢٩هـ)، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.الفارسية

١١٥. تاريخ جَهَانْگُشَاي: علاء الدين عَطَا مَلِك بن بهاء الدين مُحَمَّد الجُوَيْنيّ، (٦٨١هـ)، تحقيق: شاهْرُخ موسويَّان، استنادًا إلى الطبعة التي حقّقها مُحَمَّد بن عبد الوهاب قزويني، نشر دستان، طهران، ٢٠٠٦م.

١١٦. تاريخ گزيده: حَمْدُ اللهِ المُسْتَوفِي، ابن أبي بكر بن حَمْد الرِّياحيّ القَزْوينيّ الشَّافِعِيّ (ت٧٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحسين نوائي، نشـر أمير كبير، طهران، ١٩٨٣م.

١١٧. تجارب السَّلَف: هِنْدُوشاه النَّخْجَوَانيّ، كان حيًّا سنة (٧٢٤هـ)، تحقيق: عباس إقبال، كتابخانه طهوري، طهران، ١٩٧٩م.

١١٨. جامع التواريخ (القسم الخاصّ بتاريخ الصين): فضل الله رشيد الدين،، تحقيق: الدكتورة وانغ يي دان، مركز نشر دانشگاهي، طهران، ٢٠٠٠م.

١١٩. رسول بعث به منكو قاآن سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م إلى شقيقه هُولاگُو حين عودته من غزو بغداد، وكتب مذكراته عن هذه الرحلة تحت عنوان (سي شي كي)، وتعني رحلة إلى الغرب، نشرها إميلي برتشنايدر (١٩٠١م) في كتابه (إيران وما وراء النهر در نوشته هاي چيني ومغولي سده هاي ميانه): تشانغ تيه، ترجمة وتحقيق: الدكتور هاشم رجب زاده، بنياد موقوفات أفشار، طهران، ٢٠٠٢م.

١٢٠. روضات الجنّات في أوصاف مدينة هراة: معين الدين الزَّمْجيّ الأسفزاريّ، (٨٩٩هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد كاظم إمام، نشر جامعة طهران، طهران، ١٩٦٠م.

١٢١. روضة أولي الألباب في تواريخ الأكابر والأنساب: داود بن محمّد البناكتيّ، تُوفّي سنة (٧٣٠هـ)، ترجمة: الدكتور محمود عبد الكريم عليّ، المركز القوميّ للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٢٢. سقوط بغداد: رشيد وو، باي نان (باحث صينيّ معاصر)، ترجمة: الدكتور أسد الله آزاد، مؤسّسه آستان قدس رضوي، مشهد، ١٩٨٩م.

١٢٣. طبقات ناصري: منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجانيّ (٦٦٠هـ)،، تحقيق: عبد الحيّ حبيبي، طهران، ١٩٨٤م.

١٢٤. فرهنگ فارسي: الدكتور محمّد معين، انتشارات أمير كبير، طهران، ١٩٩٢م.

١٢٥. نزهة القلوب: حَمْدُ الله المُسْتَوفِي، تحقيق: غاي لسترنج، ليدن، ١٩١٥م.

ثالثًا: المجلاّت والدوريات:

١٢٦. هل كتب نصير الدين الطُّوسِيّ ذيل تاريخ جهانگشا؟: يوسف الهادي، مجلّة الخزانة، مركز إحياء التراث، العتبة العباسيّة المقدَّسة، العدد ٣، السنة٢، ١٤٣٩هـ.

١٢٧. هل من صلة بين كتاب مختصر أخبار الخلفاء وابن الساعي؟: يوسف الهادي، مجلّة العرب، المملكة العَرَبِيَّة السعوديَّة، العددان ١و٢، السنة ٤٦، ٢٠١٠م.

المحتويات

كلمة إدارة المركز ٥
المقدّمة ٧
وول سِتْرِيت بغداد ١١
قصّة تأسيس مكتبة ١٦
الأحياء يستعيرون كتبًا من الموتى ١٨
مغول ما قبل المغول ٢٠
قوة المعدَّات المغولية ٢٥
أبواب الجحيم ٢٦
فكًّا الكمَّاشة المغوليّة ٢٨
كان هنالك جيشان للمغول ٢٨
الإجراءات المستعصميّة المتأخّرة ٢٩
بغداد المنكوبة قبل النكبة ٣١
الأموات يطوِّقون الأحياء ٣١
يومَ قَتَلَ الأمواتُ الأحياءَ ٣٣
شهداءُ بينَ الطَّعْنِ والطَّاعونِ ٣٨
الوباء العامّ في بغداد والمنطقة ٣٩
تسليب الممتلكات أو المكتبات ٣٩
عاصمة المكتبات والمعرفة ٤١
شهادة الموسيقار الحزين ٤٣
رواية فريدة ٤٥
الرقْص مع الذئاب ٤٦
كم عاثوا فسادًا في بغداد؟ ٥٢
التسلسل الزمنيّ للوقائع ٥٣
مصير ما بقي من كتب مكتبات بغداد ٥٦
الخلاصة ٦١
المصادر والمراجع ٦٣